

كم عمر الغضب ؟
هيكل وازمة العقل العربي

كلمة عمر الفظف

هيكل وأزمة العقل العربي

د. فؤاد زكريا

الطبعة الاولى

الكويت

١٩٨٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
ص . ب ٢٤٢٦٧ ت ٢٥٥٣٤٨٩ — ٢٥٥٥٩٦٨
الكويت
الطبعة الأولى
أغسطس ١٩٨٣

الفصل الاول —

انتقام الارشيف

المحتوى

ص		
٩	انتقام الارشيف	الفصل الأول
٢١	من الذي يشتم مصر	الفصل الثاني
٣٥	لعبة الأحياء والأموات	الفصل الثالث
٥١	ظروف العائلة أم اختيار مقصود	الفصل الرابع
٦٩	التاريخ والحقيقة الضائعة	الفصل الخامس
٨٥	ورثه مصر، ونسي	الفصل السادس
١٠٧	مع السادات على جناح واحد	الفصل السابع
١٣١	الجدور	الفصل الثامن
١٦٩	عمنا سام	الفصل التاسع
١٩٩	من الذي هدم الهيكل	الفصل العاشر

الفصل الاول —

انتقام الارشيف

لن أكون قد اضفت جديدا لو قلت إن هيكمل ، في « خريف الغضب » قد قال الكثير . ولكن الجديد الذي أود أن أضيفه هو ان مالم يقله هيكمل أهم وأخطر بكثير مما قاله .

لقد أثارت المعلومات الهائلة التي فجّرها هيكمل في كتابه ، والتي لم يكن أحد غيره يستطيع أن يصل اليها أو يعبر عنها بمثل هذه الدقة عاصفة عاتية في مصر ، سرعان ما امتدت الى سائر البلاد العربية . كان هيكمل هنا يكتب ، لأول مرة ، « بصراحة » ، ولم يكن من العسير على القاريء الواعي أن يدرك أنه تخلى ، في « خريف الغضب » ، عن الأسلوب الدبلوماسي الحذر ، وعن طرق التعبير غير المباشر التي كانت تميزه « صراحاته » في معظم الاحيان . كان هيكمل هنا ، لأول مرة ، في مواجهة حقيقية أمام حاكم كان نظامه لايزال، بعد موته ، يحتفظ بالكثير من اعراض الحياة ، بل كانت روحه لاتزال - في رأي البعض - ترفرف بقوة على معظم جوانب الحياة الرسمية في مصر . وجاءت المواجهة قاسية ، مريرة ، نافذه بضرباتهما الى الصميم .

وحين بدأت المعركة الحامية حول الكتاب ، كانت تحمل سمة فريدة يقف أمامها الفكر الواعي حائرا . فقد كانت ، بالنسبة الى الغالبية الساحقة من المصريين ، معركة ضد شبح مجهول . كانت الردود تتوالى ، بعضها مؤيد ومعظمها معارض ، دون أن يكون أحد قد عرف عن موضوع المعركة وأسبابها الا معلومات أولية نقلتها حلقات قليلة جدا . من الكتاب وتسربت الى الجمهور قبل أن يصدر قرار المنع . ومع ذلك فقد استمرت المعركة بعد المنع ، وضد هذا الشبح المجهول ، بكل حدتها وعنفوانها . وكانت تلك المعركة ذاتها من أبرز أعراض ذلك المرض الذي عانى منه المصريون مرارا طوال الاعوام الثلاثين الاخيرة : أعنى أن يروا اجهزة اعلامهم تمتشق سيوفها بكل الحماسة والغضب ضد عدو لم تتح لهم فرصة معرفته .

في هذه المعركة كان الاستقطاب واضحا : فقد اعطاها أنصار هيكل وخضومه طابع الصراع بين عهد السادات وعهد عبد الناصر . كان المصفقون المتحمسون لما كتبه هيكل هم أنصار عبد الناصر ، بحيث لم يقتصر إعجابهم بالكتاب على ما حواه من فضائح تمس العهد الساداتي ، بل كان من أهم أسباب ترحيبهم به ما احتواه من دفاع ، صريح تارةً وضمني تارةً اخرى ، عن العهد الناصري . ومن جهة اخرى فقد كان الناقدون الناقمون على الكتاب هم ، بلا استثناء تقريبا ، من مؤيدي سياسة السادات ، فلم يقتصروا في هجومهم على تبرير تلك السياسة ، وانما اغتتموا الفرصة لكي يُجروا مقارناتهم

المألوفة بين العهدين ، ويشبتوا (على طريقتهم الخاصة) إلى أي حد تمكن العهد اللاحق من اصلاح ما أفسده العهد السابق .

وهكذا كان هيكل ، في نظر البعض ، شاهد صدق فضح عهدا فاسدا بأدلة لا تنكر ، وكان في نظر البعض الآخر مفتريا على الحق مختلفا للأكاذيب ناشرا للباطل . ولم يكن امام الجمهور الا ان يختار بين هذين الطرفين : فأنت إما مع هيكل ، فتصدق كل ما كتب ، وإما ضده ، فتكذب كل ما قال .

أما كاتب هذه السطور فيؤمن ايمانا راسخا بأن هذا الاستقطاب للجماهير بين ناصريين وساداتيين ، وهذا الاختيار المفروض عليها بين التصديق المطلق والتكذيب المطلق ، ما هو الا مظهر خطير لضيق الافق السياسي الذي فرض نفسه على عقولنا في العقود الاخيرة . فالقضايا الحقيقية التي تثيرها عملية « الفضح » في كتاب هيكل ، لاتؤدي ابدا الى الاختيار بين عهدين ، وانما تؤدي الى القاء ظلال من الشك على مرحلة بأكملها تشمل العهدين معا ، ويمكن ان تشمل غيرها ايضا . أما الاختيار الآخر بين التصديق والتكذيب فلا بد للعقل الواعي أن يتجاوزه . والموقف الذي ادافع عنه هو أن في وسع المرء أن يصدق الكثير جدا مما قاله هيكل ، دون ان يكون مع ذلك مؤيدا لهيكل .

هذا الكلام قد يبدو لغزا غير قابل للفهم ، ولكن المعنى المقصود يظهر بوضوح من مثال بسيط : لو فرضنا ان احد أفراد

عصابة « المافيا » قد انشقت عن الجماعة وافشى اسرارها للمحقق ، هل سيكون هذا المحقق ملزما ، إذا صدقه فيما ادلى به من معلومات ، بأن يؤيده وينحاز اليه ؟ إنني لا اود أن يؤخذ هذا التشبيه بحرفيته ، ولكن كل ما قصده منه هو ان أضرب مثلا لتلك الحالات التي يمكن أن يكون فيها احد طرفي النزاع صادقا ، ومع ذلك لا يستحق التأييد ولا التمجيد . وهذا المعنى الاخير هو الذي يلخص موقفني من كتاب هيكل ، الذي اصدق الكثير مما احتواه ، وأرحب به لانه قدم اليّ معلومات ما كانت لتصلني لولا هيكل ، ولكنني في الوقت ذاته لا أؤيد صاحبه ولا اشعر بتقدير كبير للبواعث التي دعت الى تأليفه .

ان ما يهمني ، منذ البداية ، هو ان يكون موقفني واضحا كل الوضوح . ولست أطالب القاريء ، منذ هذه اللحظة ، بأن يقتنع برأيي ، لان هذا الاقتناع - اذا حدث - سوف تنسج خيوطه ببطء وتدرج خلال حلقات متتابعة من حديث طويل ، ولكن ما اطالب به وأصرّ عليه هو الا يكون هناك أي لبس في الموقف الذي سأأخذ . فالقضايا الحقيقية التي يثيرها كتاب هيكل هي ، كما قلت ، تلك التي لم يصرح بها ، أو تلك التي تؤدي اليها كتاباته دون أن يقصد . والمشكلة التي تطل علينا من بين غلافي هذا الكتاب أوسع من أن تكون مشكلة هيكل وحده ، أو السادات وحده ، او عبد الناصر وحده . إنها مشكلة أسلوب كامل في الحكم ، كانت القضايا التي اشار اليها هيكل (ببراعة ودقة) مجرد عرض من اعراضه . وعلى الرغم من أنني سأشير في كثير من

الاحيان الى مقاله هيكل في « خريف الغضب » فان هديني الحقيقي ليس التعليق على كتاب او نقد مؤلفه ، بل ان هديني هو الكشف عن تلك الظروف والاضاع التي جعلت الكاتب ، والكتاب ، والرؤساء الذين يتحدث عنهم ، على ما هم عليه .

ولكي يزداد موقفي وضوحا ، فإني أود أن أعلن منذ البداية أنني أؤيد هيكل في الكثير مما قال ، ولكنني استنتج من كل ما قاله امورا مختلفة كل الاختلاف ، تجعلني معارضا لاتجاهاته العامة في معظم الاحيان . ولست اود ان يستنتج الساداتيون من معارضي لاتجاهات هيكل أنني اقف معهم على اي ارض مشتركة ، بل انني ارفض على نحو قاطع اية محاولة منهم لاستغلال انتقاداتي لهيكل من اجل دعم موقفهم . فأنا ، بلا موارد ، معارض للساداتية بكل قوة . ولكن هذا لايعني انني انحاز الى الطرف الآخر في الاستقطاب السائد في هذه الأيام ، بل انني اكتب من منظور اوسع من هذا الاستقطاب بكثير ، ولا أقبل ان يجزئي احد الى طرف من أطرافه .

ان هيكل يقوم في هذا الكتاب بمحاولة مستحيلة ، هي أن يقطع عهدا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه . وأية نظرة مدققة الى تاريخ العقود الثلاثة الاخيرة في مصر تقنعنا باستحالة فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية . فلنسلم منذ البدء بأن لكل نظام في الحكم شكلا ومضمونا . اما المضمون فهو اتجاه السياسات التي يتبعها ، واما الشكل فهو الاسلوب الذي يطبقه من اجل تنفيذ هذه السياسات . واذا كان

من المسلم به ان مضمون العهد الساداتي مختلف اختلافا كبيرا عن مضمون العهد الناصري ، فان من الحقائق التي ينبغي الا تغيب عن الالذهان ان « شكل » الحكم ، اي اسلوبه ، كان متشابهة الى حد كبير وبعيد طوال ثورة ٢٣ يوليو ويحمل معظم ملامحه الاصلية حتى اليوم . ولقد تحدث هيكمل اساسا عن الاختلاف - الذي ينبغي الاعتراف به بين الاتجاهات السياسية عند عبد الناصر والسادات ، ولكنه كاد ان يغفل تماما الحديث عن التشابه بين اسلوب الحكم في كلا العهدين . وفي هذا الجانب الاخير يعد السادات امتدادا لمنهج في الحكم ارست قواعده ثورة ٢٣ يوليو ، ويجوز انه اضاف اليه اجتهاداته « وابتكاراته » الخاصة هنا او هناك ، ولكن جوهر الاسلوب واحد من البداية الى النهاية - واعنى به الحكم الفردي الذي يؤمن بحقيقة واحدة ، هي ما يعبر عنه الحاكم ، ويقمع كل ما عداها .

وهكذا فإن كل اشارات هيكمل الى اخطاء ممارسات الحكم الساداتيه قد تكون صائبة . ولكن الامر الذي يغفله هو ان من المستحيل فصل النتيجة عن السبب ، وان الصورة تكون ناقصة نقصا خطيرا لو اكتفينا بمظهرها الاخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة . ويحمل القول ان هيكمل كان على حق عندما كشف العيوب الخطيرة للنظام الساداتي . ولكنه كان مقصرا تقصيرا مخلا حين عزل هذا النظام عن سياقه ، ولم ينظر اليه على انه جزء من ظاهرة اوسع منه بكثير . مع اعترافنا الكامل بأن هذه الظاهرة سلعت قمتها المساوية في العهد الساداتي على وجه التحديد .

أما الخطأ الرئيسي الثاني الذي اتسم به موقف هيكل ،
والذي يُعد بدون مبالغة عَرَضاً من اعراض مرض اوسع
نطاقاً ، فهو انه استثنى نفسه تماماً من اللوم وصب اتهاماته على
الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهداً محايداً ، او ناصحاً أميناً
لا يستمع اليه أحد . ولقد بحثت طوال الصفحات التي قاربت
الستمائة في كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتي ،
فلم اجد . وكان اقصى ما قاله عن نفسه هو انه تصور ان
السادات سيفعل كذا او كذا ولكن تصوراتهم لم تتحقق ، ويكون
المعنى الضمني دائماً هو ان الخطأ في عدم تحققها يرجع الى ان
الطرف الاخر لم يستمع الى نصحه ، أو لم يفعل ما كان هيكل
يأمل أن يفعله . وكل من عاش هذه الفترة وتابعها بوعي ، ولم
يفقد ذاكرته تحت وطأة الدعايات المتلاحقة التي تتخذ كل يوم
موقفاً مناقضاً لليوم السابق ، يعلم حق العلم ان هيكل كان
جزءاً لا يتجزأ من معظم الاخطاء التي يعيها على السادات ،
وان دوره قد بلغ ذروة التأثير في سنوات التكوين الاولى ، التي
تشكلت فيها معالم السياسة الساداتية الجديدة ، والتي ترجع
اليها معظم التطورات اللاحقة . هذه حقيقة لا بد ان يثبتها
التاريخ على نحو قاطع ، ومع ذلك فان من يبحث عند هيكل
عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير او مراجعة النفس او
نقد الذات على ممارسات غرست البذرة الاولى والاساسية
للشجرة التي نمت معوجة فيما بعد ، سيكون بحثه قد ضاع
هباء .

عند هذه النقطة لا يملك المرء الا ان يتساءل : ما الذي اتاح لهيكل كل هذه الفرص التي مكنته من ان يوجه نقدا موجعا للعهد الساداتي ، اذا كان هو ذاته قد اعطى هذا العهد ، بجهوده الواعية والمتعمدة ، معالمة الاولى التي حددت قسماته وملاحه لوقت طويل فيما بعد ؟ هنا لا يملك المرء الا ان يفكر مليا في قول هيكل ، في مستهل كتابه ، ان فكرة الكتاب قد طرأت على ذهنه منذ اللحظة الاولى لدخوله المعتقل في سبتمبر ١٩٨١ ، ثم قوله في الفصول الاخيرة من الكتاب ، انه لم يكن يتصور ان السادات سيقدم على اعتقاله ، على الرغم من كل ما بينهما من خلافات .

لقد كان لدى هيكل سلاح جبار يخشاه الجميع ، وهذا السلاح هو الذي جعله واثقا من انه لن يعتقل . فلما تجاوز السادات الحد ، في لحظة يأس لم يترك فيها اتجاهات من اتجاهات الفكر والسياسة والعقيدة في مصر الا واعتقل اهم ممثليه ، قرر هيكل ان يصوب الى السادات طلقات سلاحه الجبار : الارشيف .

لقد كان هذا السلاح ، منذ البداية ، نتاجا لظاهرة الحكم الفردي التي ازدهر في ظلها هيكل . فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر ، كانت الاسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره ، وكان هو ذاته يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله ، مدركا بذلك ان كل كلمة تسجل يمكن ان تكون مصدر قوة له في يوم من الايام ولم تكن البراعة الصحفية وحدها ، ولا

الذكاء الشخصي وحده ، هما اللذان اتاحا له هذه الفرص ، بل ان انعدام الديمقراطية وسيادة جو التكتيم والقرار الفردي المفاجيء ، جعل من الضروري ان يضيق نطاق المطلعين على الاسرار الى ابعد حد . وهكذا اطلع هيكل على مالم يكن متاحا للآخرين ، أو مطروحا على الناس ، وهده ذكاؤه الى ان يسجل اولاً بأول كل ما هو « خفي » و « ممنوع » . ومنذ ان تبين له أن الناس يتلهفون على قراءة الاسرار التي لا يعرفها احد صباح يوم الجمعة ، أدرك هيكل اهمية « سلاح الارشيف » من حيث هو مصدر قوة وحماية له في نفس الوقت .

بل ان احد الكتاب الساداتيين ، ممن كانوا على صلة وثيقة بهيكل^(١) ، يذهب الى ان سلاح المعلومات كان يُستخدم عند هيكل في العطاء أيضا . فهو يرى أن من اهم أسباب المكانة الخاصة التي اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر ، منذ اول سنوات الثورة ، انه كان يزود زعيم الثورة بقدر هائل من المعلومات التي تتجمع لديه من قراءاته الواسعة ، والتي كان عبد الناصر - وهو لا يزال ضابطا حديث العهد بالحكم - في أشد الحاجة اليها . وهكذا بدأ هيكل بالعطاء ، وفيما بعد سُدَّت له هذه الديون اضعافا مضاعفة ، عن طريق فتح خزائن الاسرار كلها له . وهكذا كان « سلاح الارشيف » ذا حدين : يعطي أولاً ، ثم يأخذ بعد ذلك بلا حدود .

(١) انظر : صلاح منتصر : « الاستاذ هيكل . شاهد ام شريك ؟ »

الاهرام - ١٩٨٣/٥/١

ولكن ، على الرغم من كل هذه الفرص الاستثنائية التي
اتاحت لهيكل وحده ، في ظل اسلوب حكم فردي مطلق ،
وكشفت له عن القوة الهائلة التي تكمن في « سلاح الارشيف » ،
فان المرء لا يملك الا ان يشعر بوجود سر خفي في تلك المقدرة
الهائلة على جمع المعلومات واختزانها واعادة استخدامها
واستثمارها في الوقت المناسب . لقد سخر هيكل من الضباط
الذين قلبوا بيته الريفي ، وقت اعتقاله الاخير ، بحثا عن اوراقه
السياسية ، مؤكدا لهم ان الرئيس ذاته يعلم انه (اي هيكل) لا
يحتفظ بشيء من اوراقه في بيته ، وأنه يبعث بها اولا بأول الى
خارج البلاد . وهكذا كان الارشيف بالنسبة الى هيكل ،
بالاضافة الى كونه مصدر قوة ، تأمينا على الحياة ، وضمانا ضد
اي شكل من أشكال الاضطهاد : فهو يحمل معه اسرار
الجميع ، بالوثائق ، ويوم يمسه سوء ستعلن هذه الاسرار
وتفضح كل شيء ، ومن هنا كان الحرص على ان تظل خارج
البلاد . ولكن يظل السؤال قائما : هل يستطيع فرد واحد ، مهما
كان ذكاؤه وتشعب قدراته ، ان يجمع كل هذه المعلومات ،
ويرتبها بهذه الدقة ، ويبعث بها اولا بأول الى الخارج ؟ لست
أدري ، ولكنني كلما امعنت الفكر في هذه الظاهرة بدا لي انها
اعقد واوسع نطاقا من امكانات اي فرد ، بل من امكانات اي
جهاز في دولة متخلفة ، وخيل اليّ اننا نجد انفسنا هنا على
مستوى يكاد يصل لاجهزة المخابرات في الدول الكبرى .
وهكذا فان هيكل عندما وجد نفسه معتقلا ، وحين تبين له

ان السادات تجاوز الحدود وتحدى قدراته ، سلط عليه أرشيفه الجبار ، وحقق لنفسه انتقامه الشخصي من حاكم كان بيته بالفعل من الزجاج ، وكان متهورا ويائسا عندما اختار هيكل بالذات ليكون واحداً ممن يرميهم بالحجارة.

على ان الامر الملفت للنظر ، والذي تتجلى فيه سخرية الاقدار بحق ، هو ان « سلاح الارشيف » ، مثلما انه مصدر قوة هيكل ، هو ايضا مكنم الضعف فيه . ذلك لان من يستخدم هذا السلاح يستطيع ، بأكثر الامكانات تواضعا ، ان يصيب هيكل في مقتل . ويكفي ان يرجع بانتظام الى قائمة كتاباته في اواخر الاربعينات ، ثم في مختلف مراحل الخمسينات والستينات ، واخيرا في اوائل السبعينات ، ويكفي ان يقارن هذه الكتابات بعضها ببعض ، او بما يظهر منها في المرحلة الراهنة ، لكي يجد لديه مادة هائلة تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . وحسبنا ان نضرب لذلك مثلا واحدا مما نشر في الصحف المصرية اخيرا . فها هو ذا كاتب يتجاسر فيقول : « ان تاريخ الاستاذ محمد حسنين هيكل صفحة سوداء في تاريخ مصر . لقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة اجنبية ، وكتب ذلك في كتابه « كلمتي للتاريخ » ، كما اتهمه مايلز كوبلاند في كتابه : « بغير عباءة او خنجر » بانه كان عميلا مخلصا . كما اتهمه خروشوف بنفس التهمة وذكر له قيمة المبالغ والشيكات التي تسلمها من وكالة المخابرات المركزية ، وكان ذلك عندما سافر سيده (يقصد عبد الناصر) الى روسيا واصطحبه معه في

هذه السفرة ، فلما واجهه نيكيتا خروشوف بهذه الفضيحة المرة اضطر ان يسافر في اليوم التالي عائدا الى مصر . (٢) .

هنا نجد « سلاح الارشيف » يستخدم ضد ابرع من اتقنوا استخدامه . واذا كنا لانملك الحكم على مدى صحة الوقائع الواردة في هذا الكلام ، فان الاتهامات التي تحدث عنها الكاتب قد وجهت بالفعل الى هيكل على ايدي نجيب وكوبلانند وخروشوف ، وكل ما فعله الكاتب هو انه رجع الى الوراء قليلا مقلبا صفحات الجرائد في السنوات الماضية . وما هذا الا مثل واحد يكشف عن الوجه الآخر لسلاح الأرشيف ، عندما يسدد الى عنق صاحبه .

(٢) انظر : محمد علي ابوطالب : « اني اتهم ! » - الاخبار ٣٠ / ٤ / ١٩٨٣ .

الفصل الثاني
من الذي يشتم مصر

القَصَل الثَانِي

من الذي يشتم مصر

أثار كتاب هيكَل ، أو على الأصح الجزء الضئيل الذي نشر منه في مصر ، عاصفة عاتية من ردود الفعل . وفي رأي أن دراسة ردود الفعل هذه ، باتجاهاتها المختلفة وتشعباتها الكثيرة ، تزودنا بذخيرة هائلة نستطيع من خلال تحليلها المتعمق ، أن نفهم الكثير عن طبيعة التشويه الفكري الذي أصبحت بلادنا تعانيه ، وعن شكل التضليل الإعلامي الذي يسلط على عقولنا ليل نهار . ففي ردود الفعل هذه تتحدد مواقف كثيرة وتنكشف وتظهر حقيقة الأفكار التي ظلت كامنة ، مستترة ، مغلفة بشتى أنواع الأقنعة الخداعة . ومن خلال ردود الفعل هذه يتضح اتجاه المصالح الحقيقية في مصر ، إذ كان معظم المدافعين عن السادات من المنتفعين منه ، أو من أصحاب المصالح التي ازدهرت في عهده ، وإن لم يمنع ذلك من وجود بعض المتأثرين بطوفان الإعلام . ومن خلالها ينكشف تهافت وتناقض الشخصيات التي كان لها دور مصيري في تاريخ مصر ، ودور أساسي في تشكيل عقلها ، وهو حكم لا أستثني منه هيكَل نفسه . ومن

خلالها تظهر للعيان جريمة الحكم الفردي التي لا تغتفر ، إذ يتبين لنا بوضوح مدى التزييف الذي طرأ على الوعي السياسي المصري ، متمثلا عند عدد غير قليل من كبار مثقفيه ، بعد ثلاثين عاما من حكم يفترض أنه ثورة تستهدف ، على وجه التحديد ، تحرير الوعي من أوهامه .

وأخيرا ، فمن خلال ردود الفعل نستطيع أن ندرك إن كان عهد السادات قد انتهى حقا ، أم أن آثاره مازالت تدب فيها الحياة بكل عدوانية وتحفز .

ان دراسة العقل المصري وتحليل سماته كما تتمثل في اتجاهات ردود الفعل على هيكل ، هي في نظري أهم الأهداف . ولم يكن كتاب هيكل في هذه الحالة الا فرصة لكشف أساليب التفكير المستورة ، التي تظل في حالة كتمان حتى تطرأ أزمة أو محنة تفجرها . وهكذا سوف أتوقف طويلا عند ردود الفعل ، وأخضعها لتحليل سأحاول ان يكون دقيقا ، آملا أن أتمكن عن طريقها من القاء الضوء على بعض سمات العقل المصري - التي تجمعها روابط مشتركة كثيرة مع العقل العربي بوجه عام - بعد ثلاثين سنة من حكم ثورة ٢٣ يوليو .

« هذا الرجل (السادات) قد اخترناه جميعا زعيما لهذا البلد ، واختيار زعيم فيه تجسيد للشعب الذي اختاره ، وبالتالي فان كل ما يقال عن هذا الزعيم يعتبر في حقيقته نيلا من الشعب الذي اختاره » .

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير في القانون ، في اجتماع للمجلس الاعلى للصحافة خصص لمناقشة كتاب هيكلم ، ونشرته جريدة « الاهرام » في ٢٩ ابريل الماضي . والاساس الذي يبني عليه تفكير أستاذ القانون هو ان الحاكم تجسيده لبلده ، مادامت قد اختارته بارادتها ، ومن ثم فإن أي هجوم من هيكلم أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها .

هذا النوع من التفكير بلغ ، في السنوات الأخيرة ، من الانتشار حدا يحتم علينا أن نتوقف طويلا عنده . فما من أحد منا إلا وتعرض مرارا لتلك التجربة المثيرة والمستفزة ، تجربة المناقشة مع شخص يؤكد أن أي نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده ، وأن الوطنية الحققة تحتم على المرء ألا يسيء الى الحكام .

ولا شك أن عبارة أستاذ القانون ، السابقة ، هي تعبير نموذجي عن وجهة النظر هذه :

أ — فهو يستخدم لفظ « الزعيم » مرتين ، وهي نفس الكلمة التي كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر) والفاشيون على موسوليني (الدوتشي) . وليس هذا استخداما اعتباطيا ، اذ كان يمكنه ان يقول : الحاكم ، او رئيس الدولة ، ولكن إصراره على لفظ « الزعيم » هو جزء لا يتجزأ من العقلية التي توحد على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده .

ب - وهو يرى هذا الزعيم « تجسيدا » للشعب ، ولم يقل « رمزا » ، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز اليه (اللون الأخضر رمز لإمكان مرور السيارات مثلا) ، بل تفصل بينهما مسافة ما ، أما التجسيد فهو اندماج كامل ، بل ان الزعيم يصبح في هذه الحالة « خلاصة » شعبه وأنقى تعبير عنه . وهذا يفترض ، بطبيعته الحال ، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختلاف ولا تباين في الرأي أو الاتجاه ، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له . ومن هنا فمن المؤكد أن الانجليز ، مثلا ، لا بد أن يسخروا ممن يرى في « تاتشر » تجسيدا لهم ، إذ أنها حتى لو كانت تجسد المحافظين ، فماذا نقول عن العمال والأحرار ؟ فضلا عن ذلك فإن الزعيم الذي يجسد شعبه هو ، بحكم تعريفه ، غير قابل للتغيير ، وإلا فكيف نتصور أن يتخلص شعب ممن يجسده ؟

ج - وأخيرا ؛ فإن أستاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات ، في أقل من ثلاثة أسطر ، عن « اختيار » الشعب للزعيم . وهكذا فإنه ، بكل وقار القانون وهيبة الأستاذية ، يعلن ثقته المطلقة وتصديقه الكامل لاستفتاءات ٩٩,٩ ٪ ، ويرى فيها أساسا يسمح للمرء بأن يقول باطمئنان تام وبضمير مستريح : « هذا الرجل قد اخترناه جميعا . »

هذه الكوارث أو الفواجع الفكرية تتجمع كلها في اقل من ثلاثة اسطر ، وتعبر بوضوح صارخ عن تدني مستوى الوعي السياسي والاجتماعي عند من يفترض فيهم ان يكونوا معلمين ومرشدين لغيرهم في هذا الميدان ، وهي في واقع الأمر دليل على نوع العقول التي توحد بين الحاكم وبلده ، وترفض أي نقد للحاكم بحجة أن هذا النقد إهانة لوطنه ونيل منه .

* * *

على أن لهذا اللون من التفكير ، أعني التوحيد بين الحاكم والوطن ، وجهها آخر ربما كان أشد حدة ، هو ذلك الذي يشيع بين المصريين المغتربين على وجه التخصيص . فظروف الاغتراب تزيد من قوة التوحيد بين البلد وحاكمها ، ومن هنا كان من ردود الفعل الأكثر شيوعا ، بين المصريين العاملين في البلاد العربية بوجه خاص ، استنكار ما كتبه هيكمل باعتباره « شتيمة لمصر » .

هذه ظاهرة لم تتمثل في حالة هيكمل وحده ، بل تعرض لها كل من يكتب كتابة نقدية عن الأوضاع المصرية في احدى الصحف العربية . كما أن من يستخدمون هذه الحجة ليسوا هم المواطنون المغتربين العاديين فحسب ، بل ان المرء يجدها تتردد على أعلى المستويات . وأستطيع ، من تجربتي الشخصية ، أن أؤكد أن النسبة الغالبة من أساتذة الجامعات المصريين العاملين في بلد كالكويت تحتج بشدة على أي مقال يوجه نقدا لحاكم مصر أو حكومتها ، باعتباره هجوما على مصر ، وهكذا فإن شيوع هذه الحجة بين المغتربين يفوق بكثير انتشارها داخل مصر ذاتها ،

ولذا كانت تحتاج الى وقفة متأنية تناقش الأسس التي ترتكز عليها
بهذه .

١ - أول أساس لهذه الحجة هو ذلك الذي اوردناه من قبل ،
واعني به أن الحاكم تجسيده لبلده . ويزداد الحرص على
فكرة التجسيد هذه عندما يكون الشخص «مغترباً» ، بحيث
تتضاعف حساسيته ازاء أي نقد يوجه الى الحاكم . وكم
من مصري مغترب ينتقد كتاب هيكمل ، على سبيل المثال ،
انتقاداً مريراً ، لا لأنه غير مقتنع بما يتضمنه من وقائع ، بل
لأنه ، حتى لو كانت كل كلمة فيه صحيحة ، يسيء الى
صورة « مصر » .

إن قليلاً من التفكير يقنعنا بأن الحريص حقاً على سمعة
بلاده هو الذي لا يوحد بينها وبين حاكمها . وفي حالة بلد
كمصر يكون من المخجل حقاً أن يساوي المرء بين ذلك
التاريخ العريق ، والحضارة الأصيلة ، بين بلد النيل
والأهرام والأزهر ، وبين تصرفات حكام أفراد يمكن أن
يكون الكثيرون منهم مصابين بجنون العظمة أو داء
الاستبداد والبطش والادعاء . إن من يعتز ببلده وتاريخه
حقاً هو ذلك الذي يعلن في كل مكان ، وأمام الجميع ، أن
مصر ليست مسئولة عن أخطاء حكامها ، وينزه بلده عن
تلك النقائص التي يمكن أن يتصف بها هذا الحاكم أو
ذاك . أما ذلك الذي ينصب نفسه محامياً عن كل خطأ

يرتكبه الحاكم ، متوهما أنه يدافع على هذا النحو عن وطنه ، فهو في الواقع الذي يسيء الى هذا الوطن أبلغ إساءة . ولو اتخذت مسألة التوحيد بين الحاكم والوطن قاعدة عامة ، لكان علينا جميعا أن نحمل بلدا كمصر أخطاء فاروق والخديوي توفيق والحاكم بأمر الله وقراقوش .

٢ - ولكن أصحاب هذا الموقف يلجأون ، عادة ، الى إضافة حجة أخرى ، هي الإشارة الى الفارق بين النقد داخل الوطن والنقد خارجه . ففي استطاعتك أن تنقد الأوضاع كما تشاء مادمت في بلدك ، أما إذا كنت في بلد آخر فإن الواجب يقضي عليك بأن تمتنع عن النقد ، بل تتصدى له بكل قوة ، حتى لا تترك « للغرباء » فرصة « الشماتة » في وطنك . ويشارك الحاكم ذاته في هذه الحجة : فهو يهاجم بكل العنف أولئك الذين « يشتمون مصر » في الخارج ، وربما استخدم التعبير المؤلف « نشر الغسيل » ، ويجد هذا الرأي صدى لدى الكثيرين ممن يتقبلون ما يقرأونه أو يسمعون بلا تفكير . ولكن الأمر المؤسف هو أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء ، بل إن نسبة كبيرة من المثقفين الذين يشغلون مراكز علمية واجتماعية مرموقة تردد في كل مناسبة هذا المبدأ : « انتقد بلدك في الداخل كما تشاء ، ولكن عليك في الخارج ان تدافع عنها (والمقصود هنا بالطبع : تدافع عن حكامها) بالحق أو بالباطل ، ولا تسمح لأحد

بمهاجتها (والمقصود : مهاجمة حكامها) .

فلنناقش إذن هذا المبدأ الخطير ، المنتشر على أوسع نطاق بين
اوساط المصريين المغتربين على مختلف مستوياتهم :

اولا : هذا المبدأ يفترض أن العرب ، الذين يقيم هؤلاء
المصريون في بلادهم ، هم بالنسبة اليهم « غرباء » . والأمر
الملفت للنظر حقا هو أن نفس هؤلاء الذين يفكرون بهذا المنطق
يمكن ان يتحدثوا باستفاضة ، في مجال آخر ، عن وحدة العروبة
والمصير المشترك والحواجز المصطنعة بين الأقطار في الوطن
العربي الواحد ، ولا يدركون التناقض الصارخ بين حديثهم
المتحمس هذا وبين نظرتهم الى العرب على أنهم « غرباء » لا
ينبغي أن تطرح مشاكل مصر الداخلية او الخارجية أمامهم ، ولا
ينبغي أن تتاح لهم فرصة « الشماتة » في مصر . فكيف يسمح
هؤلاء لانفسهم بأن يكونوا اقليميين الى أقصى حد في جانب ،
ووحيدويين متحمسين في جانب آخر ؟ أليس من الواضح أن
الايمان الحقيقي بوحدة العروبة يحتم على المرء ألا يجد فارقا بين
المصري وأي عربي في نقد الممارسات الخاطئة لأي نظام من
الأنظمة ، سواء أكان هذا النظام مصريا أم لم يكن ؟

ان العرب ، من غير المصريين ، لا يهتمون بأوضاع
مصر من أجل « الشماتة » ، كما يتصور قصار
النظر هؤلاء ، بل أن ما يحدث في مصر من مدّ وجزر ، ومن تقدم
أو تخلف ، هو الشغل الشاغل لكل عربي لسبب بسيط : هو انه

لابد ، عاجلا أو آجلا ، أن ينعكس على بلاده إيجابا أو سلبا . وما من عربي مستنير إلا ويتابع سياسة مصر بكل ما يملك من ترقب واهتمام ، لأنه يعلم أن مفتاح المنطقة كلها هناك ، ولأنه يخشى على بلده من أن يلحقها أي مكروه يصيب مصر قبلها . وهكذا فإن الاهتمام الزائد الذي يبدية اي عربي بأوضاع مصر ، يظل في واقع الأمر اعترافا بمكانة مصر الرئيسية في الوطن العربي ، حتى لو اتخذ شكل انتقاد مرير لأوضاعها . فلماذا لا يبدي احد اهتماما بانتقاد ما يحدث داخل موريتانيا او جيبوتي مثلا ، حتى لو تراكمت الأخطاء ، في ممارسات حكام هذين البلدين ؟

ثانيا : يفترض هذا المبدأ أن فرص النقد مكفولة داخل مصر . ولكن أصحابه يخدعون أنفسهم ، في الواقع ، خداعا مكشوبا حين يتظاهرون بالوطنية فيقولون ، انتقد احكام مصر في داخلها كما تشاء أما في خارجها فلا . من الذي يستطيع أن ينتقد حكام مصر في داخلها « كما يشاء » ؟ لقد ظل كتاب مصر ومثقفوها الذين يحملون هموم مصر على اكتافهم يحاورون ويناورون ، لمدة ثلاثين عاما ، كلما وجدوا امامهم ممارسات خاطئة . وكم من نقد كان يمكن ان ينقذ البلاد من كوارث رهيبة ، عوقب موجهه او ارغم على السكوت ، أو اضطر - على أحسن الفروض - الى التعبير عنه بحذر والتواء حتى يمكن ان يجد طريقه الى الناس وسط الرقابة الصارمة . فلماذا نغالط انفسنا ونتصور أن من ينتقد في الخارج يفعل ذلك طواعية ، وانه كان

يستطيع أن ينقد في الداخل ولكنه اختار - لمصالح خاصة - منبرا للتعبير خارج بلاده ؟

ثالثا : من الممكن ان يدرك المرء ، حين يعمل فكره قليلا أن معظم أصحاب هذا المبدأ يقومون بعملية اسقاط لخلافاتهم الصغيرة في العمل ، ومنافساتهم الشخصية مع جنسيات عربية اخرى في نطاق العلاقات الفردية الضيقة ، على موقفهم السياسي العام . فكل منهم يتصور أن ظهور نقد للأوضاع المصرية في جريدة صباحية سيجعل زميله أو رئيسه العربي في المكتب أو المصنع يكسب نقطة على حسابه حين يفتح الجريدة ، وينتهز الفرصة للتشفي منه . وهذه نظرة طفولية ضيقة تخلط بين العلاقات الشخصية والشئون الوطنية العامة ، وان كانت للأسف واسعة الانتشار حتى على أعلى المستويات .

إن هذا الخلط بين المستوى الشخصي للسلوك ، وبين تقييم العمل السياسي العام ، هو آفة من أخطر الآفات في تفكيرنا المعاصر ، وهو علامة واضحة على أن تربيتنا السياسية بعيدة كل البعد عن ذلك النضوج الذي لا بد منه لقيام نهضة حقيقية . وسوف تتاح لنا ، خلال معالجتنا لجوانب الموضوع الذي نتناوله في هذه الدراسة ، فرص كثيرة لرؤية أمثلة أخرى لهذا الخلط . ويكفي أن نقول الآن ان الكلام عن « التشفي » او « الشماتة » حين يكون الأمر متعلقا بالسياسة العامة لبلد من البلاد ، هو مظهر للبدائية في التفكير . أما « نشر الغسيل » وهو للأسف تعبیر

مازال يستخدمه مسئولون كبار - فهو تعبير مضحك ومؤسف في آن واحد ، وليقل لي هواة هذه التعبيرات : هل سمع أحد منكم واحدا من أنصار ريجان أو ميتران يتحدث ، في معرض تقييمه لسياسة بلاده ، عن « الغسيل » ؟

إن الفكرة الكامنة من وراء هذا هي فكرة « الستر » وهي مبدأ أخلاقي مذموم حتى على المستوى الفردي . ففي أخلاقنا الشعبية نزوع شديد الى التغطية على العيوب ، الى درجة أن افتضاح هذه العيوب ومعرفة الآخرين بها هو في نظرنا شرّ يفوق العيوب نفسها . وكثيرا ما نتصرف بحيث نتغاضى عن أخطر أنواع الآثام مادامت « مستورة » ، ومن هنا كان « الستر » أمنية غالية في تعبيراتنا الشعبية المألوفة . ولكن الخطأ الفكري والأخلاقي يتضاعف حين ننقل هذا المبدأ الى ميدان السياسة ، فندعو مواطنينا الى السكوت على اوضاع جائزة حتى لا تفتضح أمام الآخرين ، ونطالبهم بالألا « ينشروا الغسيل » بدلا من ان نطالب أنفسنا بأن نبقي غسيلنا نظيفا على الدوام .

* * *

وهكذا تكشف لنا ردود الفعل على كتاب هيكلم عن أخطاء فكرية فادحة ترسخت في عقولنا وسرت فيها مسرى البديهيّات التي لا تناقش ، ويتبين لنا أن توحيدنا بين تصرفات الحاكم وبين سمعة بلاده هو ابلغ دليل على ان لعبة الحاكم الفرد لا تقتصر على من يمارسها بنفسه ، بل ان الذين تمارس عليهم هذه اللعبة قد اندمجوا فيها وانتقلت عدواها اليهم دون أن يشعروا ، وان

الخاضع للاضطهاد قد تقمص الكثير من أفكار من يضطهده ،
وان الطغيان أصبح جزءا من تكوين المحكوم ، لا الحاكم
وحده ، الى حد انه أصبح يوحد نفسه ، وبلده ، وكرامته
ومكانته ، مع شخص الحاكم المطلق ، ويقدم بتفكيره الخاص
اقوى دعامة لذلك الاستبداد الذي يكتوي بناره ليل نهار .

الفصل الثالث

لعبة الاحياء والاموات

الفصل الثالث

لعبة الاحياء والاموات

حين نمضي في رحلة الكشف عن مظاهر تزييف الوعي وانهيار العقل والمنطق ، كما تمثلت في ردود الفعل على كتاب هيكمل ، ستظهر لنا أمثلة أخرى مؤسفة لذلك الخلط الذي أصبح سائدا على كافة الأصعدة ، بين أساليب الناس في التعامل معا على المستوى الشخصي ، وأساليبهم في النظر الى أمور المجتمع العامة ، على المستوى السياسي . ولكننا سنكتشف أيضا أن قدرة المزيفين على الخداع وصلت الى حد من الجرأة ، بل من الصفاقة ، يفوق كل تصور ، وأنهم ما كانوا ليلغوا هذا المدى لو لم يكونوا قد اعتادوا النظر الى الجمهور على أنه قطيع ينقاد ، بلا عقل ، في أي اتجاه يفرض عليه . وهذا التعالي على الناس ، والاعتقاد بأن أية أكذوبة يمكن أن تمرّ عليهم ، ليس الا النتيجة الطبيعية لجو القهر المخيم منذ أمد بعيد ، والذي أشاعه عهد لا يجعل للجماهير من دور سوى التصفيق والتصديق .

لنستمع الى كاتب كبير كان له يوما دور بارز في الحركة

الوطنية المصرية ، ولكنه انجرف في تيار التضليل السياسي منذ السبعينات ، يعلق على كتاب هيكل فيقول : « لقد اغتالوا حياته في ٦ أكتوبر ، عيد انتصاره الحربي ، وفي ٢٥ ابريل عيد انتصاره السلمي يحاولون اغتيال سمعته . . اننا نصغر في عيون الآخرين ، ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب في أيديهم الموازين . . ان ما كتبه هيكل . . ليس تحليلا ، إنما هو التشهير بعينه ، هو الاعتداء على حرمة رئيس مات . . وعلى سمعة وطن بأسره . . من قال ان كاتب التاريخ من حقه أن يهدر الحرمات ، ويشهر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ؟ من قال ان كتابة التاريخ تعني العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ ، ومتى كانت كتابة التاريخ تمزيقا للأشلاء ؟ »^(١) .

ولنستمع ، بعد ذلك ، الى استاذ مرموق في الطب ، وأمين عام لنقابة الأطباء ، وهو يهاجم الصحيفة التي نشرت مقالات هيكل الأولى قبل أن تصدر ، فيقول : « هذه الصحيفة صدرت في ظل الحريات وقانون الأحزاب التي أرسى قواعدها من أرادوا نهش لحمه حيا وميتا لا لشيء إلا لأنه اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلب امته وأعلن عداؤه للشيوعية . . » .

ويواصل الطبيب الكبير كلامه قائلا : « لا اظن ان مصريا لم يتابع جنازة السادات ولم تدمع عيناه ولم يكتبو قلبه لوعة

١ - عبد الرحمن الشرقاوي . مقال بعنوان « كفى ! » - الأهرام ٢٧ / ٤ / ١٩٨٣

وحزنا على النهاية التي أودت بحياة رئيس مصر ورمزها . . ثم يقول « لقد بلغ به الغضب قمته عندما رأى من مدّ يديه إليهم بالخير وفتح لهم أبواب الحرية وسمح لهم بالتعبير عما يجيش في صدورهم من رأي يمدون اليه أيديهم بالشر وأقلامهم بالقذف »^(٢) .

وأخيرا ، يتخيل كاتب لم يشأ ذكر اسمه أن السادات قد تولى الرد على هيكمل ، فيتحدث بلسانه قائلا : « كرهت الانسان أن يُنزع مثلي من منامه فأوقفت زوار الفجر ، ومقت لآمن انتهاك حرمة فأحرقته أشرطة الأسرار ومنعت التسجيل والتصنت ، وتصديت لشريعة الغاب فأغلقت المعتقلات ، وآمنت بحق الدفاع عن النفس فأعليت سيادة القانون . . واغفروا لي ان كان قد دفعني بعض الابناء الى ما لا يمكن أن يحبه ويرضاه أب لكل الأبناء »^(٣) .

نماذج ثلاثة لم اخترها لكي أناقش أصحابها او ارد عليهم ، بل لكي يفتح القارئ عينيه ، من خلالها ، على الانهيار الفكري الذي تولده عهود الانفراد بالسلطة والرأي الواحد . فما هي العيوب الفكرية التي تكشف عنها هذه النماذج ؟

أولا : حين يتحدث النموذج الاول عن يكتبون بلا وفاء ،

٢- د . أسامة عبد العزيزي . مقال « سقطة الخريف » - الأخبار

١٩٨٣/٤/٢٦

٣- مقال بعنوان « معهم كل الحق . . نشأتي عقّدتني » . ١٠ مايو ١٩٨٣ .

فإنه يسقط الاعتبار الأخلاقية الشخصية على التقييم السياسي ، وكأن المؤرخ ملزم ، من أجل الوفاء للحاكم اذا كان قد أسدى إليه خدمات معينة ، بأن يغمض عينيه عن عيوب هذا الحاكم ويغش جمهوره عندما يصدر حكما عليه . ثم يزداد الخلط والتشويش (الذي لا أظنه كله متعمدا ، بل هو يعبر عن الطريقة التي أصبح يفكر بها الكاتب نفسه) حين يتحدث عن « سمعة الوطن » ، وإهدار الحرمات ، والتشهير بالرجال والنساء . ويصل الضباب الفكري الى ذروته عندما يستخدم الكاتب تعبيرات انشائية لا مجال لها على الاطلاق في السياق الذي يتناوله ، وكل ما تؤدي اليه هو ايجاد جو من التعاطف مع « الضحية » ، أو جو من النفور من « المعتدي » ، مثل « العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ » او « تمزيق الأشلاء » . هكذا أصبح للتاريخ « ذمة » ، وهذه الذمة تحمي الحاكم من أي نقد ، وتجعل من يمس الحكام اللاجئين اليها « ممزقا للأشلاء » !

ثانيا : أما النموذج الثاني فأمره أغرب . إنه يؤكد ببساطة شديدة ان السادات ، حين اعلن عداؤه للشيوعية ، إنما اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلبه . وهكذا يقرر الطبيب المرموق ان مطلب الشعب المصري ليس المعيشة الآدمية ولا المواصلات السهلة ولا المسكن المعقول ولا الخبز الضروري ، وإنما هو العدا للشيوعية . ولا ينجل الكاتب من أن ينسب

اللوعة والحزن الى المصريين جميعا في تلك الجنازة التي شهد
الأمريكان انفسهم بأنها قوبلت من الشعب بعدم اكتراث كامل .
وأخيرا ، فإن الكاتب ينظر الى الحاكم على انه ولي النعم ،
ويصل به تقديس الفرد ، واحتقار الجماهير ، الى حد القول انه
هو الذي يمد يديه بالخير ، وهو الذي يفتح ابواب الحرية ، وهو
الذي يسمح للناس بالتعبير- ويرى هذا كله وضعاً طبيعياً يدافع
عنه بحرارة وفي مقابل ذلك فان المعارضين الجاحدين لا يردون
على هذا الخير الذي يتصدق عليهم الحاكم به إلا بالشر
والقذف .

ان مستوى الوعي السياسي هو الذي يهم في الموضوع كله .
فها هو ذا انسان لا بد انه سافر مرارا الى الخارج ، وقرأ ذلك الكم
الرهيب من « الشر والقذف » الذي تحتشد به صحف حزب
العمال ضد تاتشر ، او صحف الديجوليين ضد ميتران ، ورأى
نماذج لا حصر لها للمعارضة القاسية الضارية ، التي تتقبلها
الحكومات بكل ترحيب ، ومع ذلك فهو لا يقبل لبلده الا أسوأ
نموذج : ذلك الذي يكون فيه الحاكم مانحاً للخير ، والمعارض
الناقد معتدياً أثماً .

أنقول انها عقلية عصر الانفتاح ، منعكسة على ضمائر
اقطاب العهد ؟ أنقول ان الطبيب الكبير يدافع عن عهد يتيح له
ان يتقاضى عن المريض الواحد ، في كشف يستغرق دقائق
قليلة ، مقدار ما يتقاضاه خريج الجامعة الحديث ، اذا عين

موظفا حكوميا ، ليعيش به في شهر كامل ؟ لست ادري ، وكل ما اعرفه هو انها محنة فكرية ، قبل ان تكون ازمة في الضمائر .

ثالثا : واخيرا ، فإن النموذج ، الذي يقدم إلينا حديثا متخيلا بلسان السادات ، يكرر بلا موارد أفكار النموذج الثاني عن الحاكم من حيث هو « ولي النعم » ، ويقدم مجموعة غريبة من الأحكام لا تصدر الا عن شخص يفترض ان قراءه قد ألغيت عقولهم وحرموا حاسة الفهم : يؤمن بان قارئه قد نسي تماما ان عهد السادات كان فيه ايضا زوار للفجر ، وأن كثيرا من القضايا السياسية قدمت فيه بناء على شهادة اجهزة تجسس وتصنت ، وان سيادة القانون كانت تحرق حتى على مستوى اعضاء مجلس الشعب ، ولكنه يستدرك بعد ذلك فيستخدم لغة « الآباء والابناء » في وصف حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ، ويصور المسألة كما لو كان الأب الحنون ، كبير الأسرة الواحدة ، قد اضطر متألما الى ان يكون صارما مع بعض أبنائه من أجل صالحهم .

إن جرأة الاعلام على التزييف والمغالطة ، حين تصل الى هذا الحد ، فلا بد أن يكون في الأمر كله خطأ فادح . صحيح أن الاعلام في العالم كله يبالغ ، ويخرج عن الحقائق هنا وهناك ، غير أن ثمة حدا أدنى من الاحترام لعقول الناس - ولكن هذا الحد الأدنى لا أثر له ، للأسف ، في إعلام عهود الحكم الفردي المطلق ، ومن ثم فان الكاتب يستبيح لنفسه أن يلوي الحقائق

كما يشاء ، مادام يؤمن بأن عقول الناس قد الغيت منذ امد بعيد .

* * *

ومع هذا كله ، فإن هناك ما هو أفدح وأخطر ، وأعني به الحديث المتكرر عن « نبش القبور » ، والسؤال الذي أصبح التفكير السياسي القاصر في هذه الأيام ، يطرحه كما لو كان قضية بالغة الأهمية ، وأعني به : هل ينبغي أن يُنقد الحاكم حيا أم ميتا ؟

لقد رأينا في النماذج الثلاثة السابقة اشارات متكررة الى استنكار الهجوم على الحاكم بعد موته ، ولكن لا بد لنا أن نقدم نماذج أخرى لهذا الاستنكار ، حتى يدرك القارئ مدى انتشار هذا اللون من التفكير . فالكاتب موسى صبري ، وهو من أكبر الدعاة الساداتيين ، يتحدث حديثا طويلا عن « حرمة الموت والموتى » ، وعن « نبش القبور » و« انتهاك الحرمات »^(٤) . ولكن الاخطر من ذلك بيان نقابة الصحفيين في مصر تعقيبا على كتاب هيكمل : « ان ما نشر يعد . . اعتداء على حرمة الموتى وتعرضا لحياتهم الخاصة ومخالفا لتقاليد المجتمع الدينية والأخلاقية » .

ولقد استنكر هيكمل - وكان على حق في ذلك - استخدام رهبة

٤ - الاخبار في ١٩ / ٤ / ١٩٨٣

الموت وقدسيته من أجل تبرئة الحكام وإبعادهم عن النقد ، فقال : « ومع ذلك فمن المصريين من يطالب بمصادرة حقنا في أن نناقشه ، هل من المعقول أن يأتي كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟ أهذا معقول ؟ »^(٥) هذا كلام رائع بغير شك : فكل من يستنكرون مهاجمة الحكام بعد موتهم إنما يهدفون ، في حقيقة الأمر ، الى مصادرة حق الناس في توجيه أي نقد الى الحاكم ، سواء خلال حياته أو بعد مماته . ذلك لأنهم هم أنفسهم الذين يشاركون في قمع حريات المعارضين والتككيل بهم واتهامهم بالعمالة والخيانة لو انتقدوا الحاكم حيا ، وهم الذين يتمسحون بالفضيلة والأخلاق وتقاليد المجتمع والدين لو وجدوا من يهاجم الحاكم ميتا . وهكذا فالنقد أثناء الحياة ممنوع ، وبعد الموت عيب وحرام . فهل هذا - كما قال هيكل بالضبط - معقول ؟

ولكن المهزلة الكبرى تتمثل في أن هيكل نفسه ، الذي يتلفت الآن حواليه ببراءة ويتساءل : أهذا معقول ؟ كان هو نفسه من أهم من استخدموا هذه الحجة المتهافئة ، وكان من اقوى الناس نقدا لمن يهاجمون الحكام بعد موتهم . وهكذا نجد انفسنا ازاء « لا معقول » آخر ، غير ذلك الذي يمثل خصوم هيكل ، هو « لا معقول » هيكل نفسه .

٥ - حديث هيكل مع صلاح عيسى في « الأهالي » ٢٧ / ٤ / ١٩٨٣

فلنبدا بتأمل رأي قريب العهد هيكل . لقد نشرت الصحف ، في مصر والكويت ، الرسالتين المتبادلتين بين توفيق الحكيم وهيكل . فماذا نجد في هاتين الرسالتين بشأن الموضوع الذي نتحدث عنه الآن ؟ قال توفيق الحكيم مخاطبا هيكل : « إن حالتي تشبه حالتك . فأنت كتبت كتاباً « خريف الغضب » اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته . وأنا كتبت كتاباً هو « عودة الوعي » اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته . ولكن هيكل يرفض هذا التشبيه بين الكتابين ، ويهمننا في رفضه السبب الثاني الذي قدمه للاختلاف بينهما : « لم اكتب بعد موت احد . كتبت في حياته رأيي ، وكتبت بعد موته نتائج دراستي لما حدث » وهو يؤكد ، في موضع آخر ان الحكيم الف كتابه « بعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر » على حين انه هو ذاته نقد السادات منذ فبراير ١٩٧٤ .

علام يدل هذا الحرص على نفي فكرة نقد الحاكم بعد موته ؟ على شيء واحد ، هو أن هيكل يقف على نفس الأرض التي يقف عليها خصومه ، ويفكر بنفس منطقهم ، ويتبنى نفس قيمهم . فالمعنى الضمني لديه هو ان نقد الحاكم بعد موته جبن ، أو عمل غير أخلاقي ، ومن هنا كان حرصه على تأكيد أنه نقد السادات حيا ، ولم ينتظر ثلاث سنوات كما فعل توفيق الحكيم ، وكل ما فعله بعد موت السادات هو انه « كتب نتائج دراسته لما حدث » .

ولكن ، لترك المعاني المفهومة ضمنا وننتقل الى الكلام
الصريح فقد نشر هيكل مقالا بجريدة « الوطن » الكويتية^(٦)
بعنوان : « ما اكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » - وهو في
ذاته عنوان بالغ الدلالة ، يتهم فيه هيكل من ينقادون للأموات
بالجبن لأنهم لم يمارسوا « شجاعتهم » الا على الغائبين . في هذا
انتال يروي لنا هيكل قصة عتابه لعبد الناصر على قيامه باعتقال
شخصية من الشخصيات المرتبطة بصحيفة « الاهرام » ، ثم
يعلّق قائلا : « لا اسمح لنفسى ان اقص عليك ما قلته له .
ذلك الآن تجاوز لا يليق . لو كان حيا واقتضت الظروف ان
اروي الحديث كله لرويته . ولكنه لم يعد بيننا . ولهذا لا
أستبيح لنفسى ان أدعي الشجاعة على غائب . ما اكثر الشجاعة
هذه الايام على الغائبين . الفئران كلها تعربد في غياب القطط ،
ولم يكن جمال عبد الناصر قطا ، وإنما كان أسدا مهيبا وشاخا » .

وهكذا يصف هيكل توجيه النقد للحكام بعد موتهم بأنه
عريضة فئران في غياب القطط ، ولا يدري أنه بعد أعوام قلائل
من حديثه ذاك ، سيجد بدوره من يشبهه بنفس التشبيه ، بعد
أن مارس هو ايضا شجاعته على حاكم غائب . والمفارقة الساخرة
أن قائل هذا الكلام هو نفسه الذي يهتف في أيامنا هذه باستنكار
: هل من المعقول أن يفعل الحاكم ما يشاء فلا نناقشه في
حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟

وهكذا فإنه ، عندما كان الأمر متعلقا بنقد تصرفات لعبد
الناصر ، وجد هيكل في مهاجمة الأموات جبنا ، وعندما أصبح
متعلقا بالهجوم على السادات ، استنكر عدم مناقشة الحاكم بعد
مئاته (ولاحظت انه استخدم في هذه الحالة الأخيرة عبارة « كل
حاكم » أي أنه كان يصدر حكما منطقيا على جميع الحالات) .
هذا التناقض يدل على ان هيكل وخصومه يقفون جميعا على
ارض واحدة ، ويؤمنون بمجموعة واحدة من الأفكار الباطلة ،
التي تركز على نزعة أخلاقية زائفة تخاطب عواطف الناس لا
عقولهم . وتخلط بين الموت من حيث هو كارثة انسانية
شخصية . وبين التقييم السياسي من حيث هو ممارسة لا صلة لها
بالموتى والاحياء .

إن الجميع في الهمم والصحالة الفكرية سواء . والكُل شأوا
في مناخ سياسي لا يسمح بالمرضوعية ولا يترك مجالا للنقاش
المنطقي المجرد عن الأهواء . فالساداتيون يقولون : لقد نبشتم
قبر السادات . وهنا يرد الناصريون : وأين كنتم عندما نبش قبر
عبد الناصر : انتم فئران ! ولكنه حين ينبش هو نفسه قبر
السادات ، ويهاجمه خصومه لهذا السبب يتساءل في براءة : هل
من المعقول ان يمنعونا عن نقد « كل حاكم » حيا او ميتا ؟

انها أرجوحة شيطانية ، يتراقص فيها الجميع سكارى بخمر
الأفكار الزائفة والقيم المضللة ، ويشتون بها ، على نحو قاطع ،
طفولية النكر السياسي بين جميع اطراف اللعبة بعد ثلاثين عاما

من ثورة أعلنت أن هدفها تحرير الفكر وتصحيح مسار القيم .

تظل هناك ، بعد ذلك نقطة واحدة يمكن أن يلجأ إليها هيكل في دفاعه ، وهي ان نقده للسادات بدأ اثناء حياته . هذا صحيح ، ولكن ليقول لي الاستاذ هيكل « بصراحة » : لو كان السادات لا يزال حيا ، أكان يستطيع ان يتكلم عن « ست البرين » وعن « المجعراتي المتسول » وكأس الفودكا الذي يؤخذ بعد كل غذاء ؟ ليجب ، بصراحة ، ايضا : عن هذا السؤال : مادام هو نفسه صاحب منطق القطط والفئران، فأين يضع نفسه ، في هذه النقطة بالذات ، بين هاتين الفئتين ؟

إن المسألة كلها خطأ مركب . فالكلام عن الأحياء والأموات ، والتفرقة بينهم في النقد ، أمر لا معنى له في ظل اي وعي سياسي سليم ، ومبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » ينطبق على الأقارب أو الجيران أو الشركاء ، ولكنه خارج عن مجال الكتابة التاريخية والسياسية . ولوصح هذا المبدأ في تلك الميادين الأخيرة ، لما استطعنا كتابة التاريخ ، ولكان الموت هو شهادة البراءة لكل حاكم ظالم او فاسق أو طاغية ، ولأصبح كل مؤرخ ، بحكم مهنته ذاتها . نباشا للقبور . ولكن الناس الذين اعتادوا على مدى سنوات طويلة ، أن يمحسروا تفكيرهم في شخص الحاكم ، والذين عجزوا عن ان يتصوروا اية حقيقة تتجاوزهم ، هم الذين يصبغون السياسة بهذه الصبغة الشخصية ، ويحكمون على تصرفات الحكام مثلما يحكمون على

سلوك « كبار العائلة » ، وينسون المسئوليات الخاصة « لرجل الدولة » ، التي تحتم علينا ان نحاسبه على كل شيء ، وفي اي وقت نشاء .

هذا الذي قلناه ينطبق على الموضوع كله ، من حيث المبدأ ، وفي ظل اي نظام ، حتى النظام الديمقراطي . اما النظام الدكتاتوري - الذي تدور في ظله كل مناقشات هيكل وخصومه - ففيه يصبح الموقف اوضح . فاذا كان النظام لا يسمح بمناقشة الحاكم اثناء حياته او بعد مماته ، فإن النظام الدكتاتوري لا يسمح بمناقشة الحاكم « الا » بعد وفاته . ومادام النظام الدكتاتوري تحكمه اسود مهيبة وشاخنة ، فمن الطبيعي ان يكون هناك على الطرف الآخر ، فثران - والا فعلى اي شيء يستأسد الأسود ؟

ان الناقد الذي يهاجم اي حاكم فردي مطلق بعد مماته ، إنما يتصرف تصرفا طبيعيا لا مفر منه . ولو قيل له : إنك خائف ، لكان رده : نعم ، انني لم اتكلم الا الآن لانني كنت خائفا ، ولي كل الحق في أن أخاف . وحتى لو ادعى هيكل الشجاعة فأكد أنه انتقد السادات في حياته ، فان هذه ليست قاعدة يمكن ان تسري على الجميع . فهيكلم قد استطاع ان يختلف مع السادات في سنواته الاخيرة علنا لأنه هيكل ، بكل ما يحمله من نفوذ وما لديه من اتصالات عالمية وما يحتفظ به من اسرار تبعث الرعب في قلوب أقوى الأقوياء - وهذه كلها

امكانات لا تتوافر لأي كاتب آخر ، حتى لو كان في منزلة توفيق الحكيم . ومع كل ذلك فإن هيكمل عندما هاجم الحاكم الفرد في حياته لم يكن يمسه الا مسارقيقا ، واضطر - بكل سلطته ونفوذه وامكاناته - ان ينتظر حتى يموت لكي يغوص في الأعماق .

ان القضية كلها - اعني الكتابة عن الحكام أحياء أم أمواتا - هي في رأينا قضية ما كان ينبغي أن تثار ، وليس الاهتمام المفرط الذي ابداه اطراف النزاع بها الا دليلا على قصور شديد في الوعي السياسي لدى الجميع . والمسألة ببساطة استغلال لعاطفية الجماهير واستغلال لعقولها من اجل الحيلولة دون نقد الحاكم حين لا يعود الناس خائفين ، بعد ان كان نقده ممنوعا عندما كانوا خائفين . والخطأ الحقيقي الذي ارتكبه هيكمل ، لا يكمن في أنه انتظر حتى يموت السادات ثم فجر قنابل المعلومات على قبره - إذ أن الدكتاتور لا يمكن نقده الا بهذه الطريقة . وإنما يكمن خطأ هيكمل في أنه لم يكن يدرك هذه الحقيقة طوال الوقت ، بل عاش الجانب الأكبر من حياته واقعا في وهم « القطط والفئران » والشجاعة على الحاضرين والجبن على الغائبين .

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

تظل ردود الفعل على كتاب هيكل مصدرا مفيدا غاية الفائدة لتحليل أساليب التفكير المشوهة التي أصبحت سائدة في عالمنا العربي بعد سنوات طويلة من القمع . وتعمق دلالة هذا التشويه حين ندرك ان الكاتب الذي أثار ردود الفعل هذه ، لم يسلم هو ذاته ، في كثير من الأحيان ، من الوقوع في اخطاء نقاده نفسها ، بحيث يشعر المرء بأن المسألة في حقيقتها لا ينبغي ان تناقش على مستوى اطراف النزاع ، ولا ينبغي ان تنحصر في البحث عن المصيب والمخطيء بين هذه الأطراف ، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن في ذلك الجو الفكري المزيف الذي طغى تأثره على الجميع ولم يسلم منه أي طرف . .

كان هيكل ، بغير شك ، مبالغا في حديثه عن العوامل الفردية والعائلية التي تحكم في نشأة أنور السادات ، وصبغت شخصيته فيما بعد بصبغتها المميزة . صحيح انه ، حين يكون الحكم فرديا مطلقا ، تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه ، وربما نزواته ، دورا لا يستهان به ، يمكن ان ينعكس حتى على قراراته

المصيرية . ولكن المشكلة هي ان العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا : فالابن الذي يضطهده أبوه أو سيء معاملته ، مثلا ، يمكن أن يتحول الى إنسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ، ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى . ولكنه يمكن أيضا أن يكون إنسانا حنوناً عطوفاً على الآخرين ، لا يريد لهم نفس المحنة التي مر هو ذاته بها ، ويكون هذا أيضا رد فعل على نشأته الأولى - وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها في الانسان البالغ ، هو دائما حديث مخوف بالمخاطر ، يقبل أشد التأويلات تناقضا .

خذ مثلا فكرة الأصل المتواضع ، والحياة الصعبة التي كانت تحياها أسرة السادات . هذا شيء يقبل تفسيرات شديدة التنوع . فكم من زعيم أسدى لشعبه أعظم الخدمات ، وكان أصله المتواضع هو الحافز له على ان يفنى حياته من أجل الشعب الذي يشعر دائما بانتمائه إليه . وإذا كان السادات قد أغرق نفسه في البذخ ، بصورة مبتذلة ، في حياته المتأخرة ، فإن هذا اختيار واع من جانبه ، وانتاء وانحياز منه إلى طبقة محوره ، وليس مجرد عقدة نفسية عبرت عن نفسها بصورة عكسية . فلماذا لم تؤد عقدة الفقر بهوش منه او لومومبا مثلا إلى اختيار حياة القصور والاستراحات ؟ ألم يكن جمال عبد الناصر نفسه فقيرا^(١) ؟ بل إن

(١) يلاحظ ان بعض ضحايا التأميمات ، في عهد عبد الناصر ، قد فسروا إجراءات التأميم والمصادرة تفسيراً نفسياً يوازي تفسير هيكمل لسلوك السادات ، فذكروا =

مثل هذا التفسير يمكن أن يستخدم ضد هيكل نفسه ، وقد أشار موسى صبري بوضوح مقزز إلى أصول هيكل العائلية ولمح إلى ما يسميه : من إظهار أبيه في الأماكن العامة ، بل إن كاتباً قدّم عملاً روائياً ومسرحياً مشهوراً تضمّن إشارات مماثلة تتعلق بشخصية من شخصيات الرواية رأى كثير من النقاد أنها ربما كانت نسبياً عن شخصية هيكل نفسه^(٢) .

هذه أمثلة لا أذكرها إلا لكي أنقدها وأبين أنها مبنية على فهم باطل من أساسه لعملية تفسير مسلك رجل الدولة . ومع ذلك فقد تورط هيكل فيها ، خلال فصوله الأولى ، أكثر مما ينبغي . ولا شك أن نوعية الجمهور الذي وجه إليه الكتاب أصلاً ، وهو الجمهور الأمريكي ، كانت مسئولة ، الى حد بعيد عن هذا التورط . فالأمريكيون مصابون بهوس العقد النفسية والتفسيرات السيكلولوجية الرخيصة ، وهم ينفقون على العلاج النفسي ما يغطي ميزانيات عدة دول من العالم الثالث ، دون أن يجنوا من ذلك إلا مزيداً من السلوك غير السوي . وهكذا خاطب هيكل جمهوره الأمريكي باللغة التي تروق له ، ولكنها للأسف لغة لا تفسر شيئاً ، بل تزيد الأمور تعقيداً .

خذ مثلاً مشكلة اللون . لقد كان هيكل -بلاإنصاف-

= انها تعبير من حقد عبد الناصر على طبقة الأغنياء وحسده لها بسبب أصوله الفقيرة - وهكذا يؤدي السبب الواحد الى نتيجتين متناقضتين .
(٢) انظر : الرجل الذي فقد ظله لفتحي غانم .

واضحاً في هذه المسألة ، فأكد ان السادات كان معقداً من لونه « بلا داع » . وفي كل مرة كان يكرر انه لم يكن هناك ما يدعو الى هذا التعقيد اللوني . ولكن مجرد الاشارة الى اللون كانت كفيلة بإثارة ردود فعل غاضبة لدى كثير من الناس . وكان من أطرف ردود الفعل هذه ما كتبه مستشار سوداني احتج بشدة على ما ذكره هيكل عن عقدة اللون عند السادات ، مؤكدا ان هذا ليس رأي الشعب المصري في الشعب السوداني ، الذي يحبه المصريون ويفخرون به ، وذاهبوا الى أن هذه إساءة الى الشعب السوداني تعرقل مسيرة التكامل بين البلدين « في ظل قيادة الرئيس نميري » . ورأى المستشار فيما قاله هيكل تفرقة عنصرية ، ومؤامرة مشتركة مع القذافي لعرقلة التكامل بين الشعبين . ولم ينس المستشار ان يشير الى أسماء عدد من الشخصيات المصرية المشهورة التي كانت من أب سوداني أو أم سودانية ، كمحمد نجيب وعبد الله النجومي وعلي عبد اللطيف ، ولم يمنعهم ذلك من دخول التاريخ^(٣) . هذا رد فعل مبالغ فيه بغير شك ، وربما كان طائشاً ، نتج عن فهم قاصر لإشارة هيكل الى لون السادات ، ولكن الموضوع بأكمله ما كان ينبغي ان يثار ، لأن أخطاء الحكام ، وخاصة حين تكون فادحة ، أعقد من أن تفسر بمثل هذه العوامل .

(٣) المستشار أحمد الشريف (سوداني) : مقال بعنوان « متى كانت الجنسية السودانية سبة ؟ » (الأخبار في ٢٦ / ٤ / ٨٣)

ولكن لتتوقف وقفة أطول عند صفة أخرى أكدها هيكل
بالحاح ، وأثارت ضده موجة من ردود الفعل العنيفة ، وأعني بها
نشأة السادات الفقيرة ، التي أدت ، وفقا لتفسيرات هيكل
النفسية ، إلى رد فعل في الاتجاه العكسي لدى السادات عندما
أتيحت له فرص الإثراء . ولما كان هدفنا الدائم هو التوصل الى
انماط الفكر التي أصبحت سائدة في أيامنا هذه ، والتي تشهد على
الانهيار العقلي المميز لعهود القهر والكبت ، فسوف نبدأ بضرب
أمثلة لردود الفعل التي لا يكاد يتصورها العقل ، على ما قاله
هيكل عن فقر السادات في حياته : فالكاتب الذي اقتبسنا عنه
من قبل ، والذي تحدث بلسان السادات ، ردا على هيكل ،
دون أن يذكر اسمه ، يقول : « صدقوا فيما يقولون . نشأتي
عقيدتي . ذقت الفقر وقسوته فحاولت أن أجنب غيري تذوق
مرارته . تملكنتني عقدة الرخاء ، وكانت أغلى أمانتي أن يوفقني
الله إلى حماية من عنده لكل مصري ومصرية من مواجهة لا ترحم
مع شيخوخة أو عجز أو عوز، وأن يقدّرني على طلب الطعام من
الصحاري لكل فم ، وحق العلاج والدواء لكل عليل ، وتوفير
البيت لكل عروس ، ويشهد الله والشعب الوفي الذي لا ينسى
انني سعت وحاولت قدر طاقتي » .

ويستنكر زعيم يمّني سابق على هيكل أنه يعير السادات
بفقره ، فيذكرّ القهاء بأن الله قد اختار أنبياءه من الفقراء وقال
لرسوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة

ربك فحدث . ثم يعلق الزعيم السابق المشهور قائلاً : « ولم نسمع أن السادات قهر يتما ، ولا نهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث . »^(٤)

والنموذج الثالث شهادة سريعة لموسى صبري ، يكرر فيها قصة عن السادات الذي أصر على ان يقرأ بنفسه شكوى رجل فقير بعد أن حاول سكرتيه الخاص أن يعالج الموضوع دون تدخل من الرئيس ، ثم قال السادات لهذا السكرتير : « أنت يافوزي لم تعان الفقر كما عانيته . »^(٥)

هذه الأمثلة تكفي للدلالة على التدهور الخلقي والفكري الذي يمكن أن يصل إليه الإعلام في ظل القمع . فكتب العبارة الأولى ، على سبيل المثال ، لا ينجل من الحديث عن رحمة الرئيس بالفقراء ، ويتوهم أن الوعي لدى الجماهير قد انعدم الى حد نسيان مجموعة المليونيرات التي أحاطت الرئيس السابق وصاهرته ، وتلك التي أعطيت لها كل الفرص لنهب أموال الشعب في ظل الانفتاح . ولا يتورع الكاتب عن الحديث عن شقة لكل عروس في الوقت الذي تشهد به تجربة الناس اليومية أن أسعار المساكن الخيالية وصلت الى أرقام لم تعد تقدر عليها إلا عروس واحدة بين كل ألف عروس . وهو لا يستحي من الحديث عن الطعام لكل فم وسط الغلاء الطاحن ، ولا عن

(٤) انظر مقال الدكتور عبد الرحمن البيضاني في الأخرام ، ٨٣/٤/٢٤ .

(٥) مقالة موسى صبري في الاخبار ، ١٩٨٣/٤/١٩ .

الدواء لكل مريض وسط الإهمال الكاسح لعلاج الشعب والارتفاع الصاروخي لأسعار العلاج الخاص . فماذا يمكن أن يقول العقل والمنطق حين تصل الصفاقة بالاعلام الى هذا الحد ؟

إن من العبث أن يترسل المرء في مناقشة هذه الشهادات الفجة ، التي لا تركز إلا على مغالطات مفضوحة ، وما استشهدنا بها هاهنا إلا لكي نقدم نماذج للمستوى الذي أصبحت تناقش به أمور المجتمع المصيرية في الوقت الراهن . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتساءل : هل يكفي التعليل الذي قدمه هيكل ، والذي يركز على فكرة عقدة الفقر ، لكي يفسر البذخ المفرط الذي تميزت به حياة السادات ، وحياة المحيطين به من أقارب وأصحاب ؟ إن عقدة الفقر ، كما قلنا ، يمكن أن تتجه اتجاهها عكسيا ، فتولد لدى الحاكم تعاطفا حقيقيا مع الفقراء ، وسعيا جادا إلى استئصال الأسباب المؤدية إليه ، فلماذا إذن كان الاتجاه ، في حالة السادات ، إلى التمتع المفرط بنعم الحياة ، والاندماج التام بأكبر أثرياء المجتمع ؟

في رأيي أن المسألة اختيار واعٍ ومقصود لنمط معين من انماط الحياة ، ولفتة معينة في المجتمع هي الأقدر على إشباع احتياجات نمط الحياة المطلوب . فالتفسير هنا اجتماعي واقتصادي قبل أن يكون نفسيا .

والدليل على صحة الرأي تقدمه هو ان السادات حارب فكرة

الفقر ذاتها ، بطريقة متعمدة ، أملا في إلغائها من القاموس ، وبذل جهودا واعية لإقامة « فلسفة » خاصة به ، لا مكان فيها لمفهوم الفقر ، وبذلك تكتمل عملية تغييب الوعي لدى الجماهير التي تشعر بوطأة الفقر في حياتها اليومية حتى لو لم تفهم الأسباب الحقيقية المؤدية اليه . ففي معظم خطب السادات وأحاديثه كانت هناك دعوة متكررة الى إلغاء الحقد والاستعاضة عنه بالحب والتآلف والانسجام في ظل مجتمع « الأسرة الواحدة » الذي يرعاه ويسهر عليه « كبير العائلة » . والحقد هنا ليس إلا تطلع الفقراء إلى غمط حياة الأغنياء . وهكذا تقوم هذه الفلسفة المتهالكة على إذابة الوعي بالفقر ، وإلغاء الإحساس بالفوارق الصارخة بين الطبقات ، بدلا من ان تقوم على إلغاء هذه الفوارق ذاتها . ولا جدال في ان الالحاح على الناس ليل نهار كي يتخلوا عن الحقد ويحبوا بعضهم بعضا ، في إطار مجتمع يسوده كل هذا القدر من التفاوت في الثروات وفي كافة فرص الحياة ، إنما هو محاولة واعية لتزييف عقول الناس بحيث تنسى واقعها الأليم ذاته ، وليس على الإطلاق مجرد رد فعل نفسي من جانب الحاكم على نشأته الفقيرة .

ولعل الدليل الأوضح من هذا كله هو موقف السادات من أحداث يناير ١٩٧٧ . فهذه الأحداث كانت « ثورة فقراء » بمعنى الكلمة . والأمر الملفت للنظر حتما ، في موقف السادات إزاءها ، ليس أسلوب القمع العنيف الذي اتبعه لاختادها ،

فهذا هو المسلك المنتظر من أي حاكم في مثل موقفه . ولكن ما
ينفرد به السادات هو أنه حاول أن يلغي طبيعة الحدث ذاته ،
ويحذف منه عنصره الأساسي ، عنصر الفقر ، حذفاً كاملاً .
وهكذا ظل السادات شهوراً طويلة ، بعد يناير ، يوجه إلى كل من
يناقشه أو يحاوره سؤالاً لا يتغير : انتفاضة شعبية أم انتفاضة
حرامية ؟ وتبعاً للإجابة عن هذا السؤال يتحدد موقف كل
شخص ، إن كان مع السلطة أو ضدها ، من أنصار الانفتاح أو
خصومه ، من الطبقة العليا الجديدة أم من الطبقات الدنيا .
كان إطلاق اسم « الحرامية » على تلك الملايين التي خرجت في
مظاهرات تلقائية عارمة ضد رفع الأسعار . هو في ذاته اختيار
طبعي لا تخطئه أي عين . وبغض النظر عن أن وجود كل هذا
العدد الهائل من « الحرامية » (لو صحت التسمية) هو في ذاته
دليل على أن هناك خللاً أساسياً في المجتمع ، فإن الشيء الذي
ينطوي على دلالة عميقة هو أن الاختلاف حول الاسم كان
يعكس محاولة من الحاكم لإنكار وجود الفقر في المجتمع أصلاً .
فالتظاهرون لم يخرجوا لأنهم فقراء بل لأنهم « حرامية » . هذه
قمة التوحد مع الطبقة الثرية التي أصبحت تحكم مصر وتنهب
مواردها . . ذلك التوحد الذي يصل إلى حد إلغاء كلمة الفقر من
القاموس ، وكأن حذف لفظ معين وإحلال لفظ آخر محله سوف
يستأصل الظاهرة نفسها من جذورها !

كانت تلك ، بطبيعة الحال ، واحدة من تلك الحالات التي

يقوم فيها اختيار لكلمة مخففة بالتغطية على حقيقة أليمة مريرة ، تلك الحالات التي ستكتشف فيها أجهزة الاعلام سحر « الكلمة » ، فتلاعب بها وهي واثقة من أن الكلمة المزيفة ، إذا ما تكررت استخدامها الى الحد الكافي ، تستطيع أن تغير طبيعة الظاهرة التي تتحدث عنها وتشكلها بالطريقة التي تحقق أهداف الحاكم - ويدخل في هذا الاطار استخدام أجهزة الاعلام المتكرر للفظ « النكسة » بدلا من الهزيمة الثقيلة في يونيو ١٩٦٧ ، وحديثها الدائم عن « سيادة القانون » ، بمعنى وضع قوانين مزيفة توافق عليها الأغلبية الآلية في المجالس النيابية ثم ضمان « السيادة » لها ، واستخدامها تعبير « تحريك الأسعار » بدلا من الغلاء الفاحش ، وهلم جرا .

على أن الأمر الملفت للنظر هو ذلك الافتقار العجيب إلى سياسة محددة المعالم ، قابلة للتنفيذ ، لمواجهة ظاهرة الفقر في مصر . فبدلا من التصدي للظاهرة بأساليب مخططة ومدروسة ، كان الحاكم يتحدث في كل مناسبة ، عن أمنيته الغالية ، وهي أن يكون لكل مصري « فيلا وسيارة » خاصة به ، ومثل هذا الحديث ليس مجرد تخدير لحواس الناس وعقولهم فحسب ، بل هو ايضا دليل على ان فكرة المواجهة العلمية للمشكلات غير موجودة في ذهنه أصلا : ذلك لأن بلداً كمصر لا يحتمل ببساطة ، أن يكون لكل مواطن فيه « فيلا وسيارة » ، حتى لو كان نظام الحكم فيه وطنيا مخلصا بلا أي شائبة . والنظرة العلمية

إلى مشكلة كهذه هي التي تحدد الأهداف وفقا للإمكانات الموجودة، وتكتفي بالحد الأدنى للمعيشة الأدمية بدلا من أن تغرق الناس في أوهام يستحيل تحقيقها . ومن المؤكد ان المفارقة لا بد أن تكون قاسية بين حلم « الفिला والسيارة » ، حين يشيعه بين الناس أكبر مسئؤل في الدولة ، وبين الأسعار الفلكية للمساكن الجديدة ، ووسائل المواصلات اللاإنسانية التي لا تملك الأغلبية الصامتة غيرها . وفي مثل هذه الحالات ، يكون التقدير الواقعي للأهداف أقدر بكثير على تهدئة مشاعر الناس وبعث الأمل في نفوسهم من أي تعبير تخديري حالم .

المهم في الأمر أن من المحاولات الواعية المتعمدة للتغطية على حقيقة الفقر الصارخة ، ولتعليل الناس بآمال زائفة ، لا يمكن أن تكون مجرد تعبير عن « عقدة فقر » متأصلة منذ النشأة الأولى ، وإنما هي تعبير عن اختيار وانحياز إلى جانب القلة المستغلة ضد الأكثرية المطحونة من وطأة الاستغلال . إنها فلسفة متكاملة ، دبرت وخططت بعناية وبخطوط مرسومة ، وليست مجرد رد فعل سيكولوجي على ظروف الفقر التي سادت خلال فترة النشأة الأولى . ومن هنا يبدو ان الخطأ الذي ارتكبه هيكل في هذا الجزء لا يقل فداحة عن ذلك الذي ارتكبه خصومه ممن تحمسوا للدفاع عن السادات ، سواء منهم ذلك الذي أكد أن فقر السادات جعله يسعى حثيثا لاستئصال كل مظاهر الفقر في بلاده ، أو ذلك الذي ذرف دموع التماسيح وهو يتحدث عن معاناة رئيسه من الفقر في حديثه ، أو ذلك الذي شهد - بكل

أمانة وإخلاص - بأن السادات لم يقهر يتيا ، ولم ينهر سائلا ،
وكان بنعمة ربه يحدث !

أن الاهتمام الزائد بعوامل التنشئة والتربية والبيئة الأولى ، في
حياة السياسيين ، يمكن أن يؤدي إلى عكس الهدف المقصود
منه . ففي حالة السادات كان من الممكن - كما قلنا من قبل - أن
تُفسر نشأته المتواضعة على نحو يؤكد تعاطفه مع الفقراء ، كما
فعلت أجهزة الاعلام المؤيدة له بالفعل . ولوقيل إن النشأة
المتواضعة ، وليست الاختيار الأصيل ، هو الذي أدى به إلى
ارتكاب أخطائه ، فإن مثل هذا التعليل يعني التماس شيء من
العذر للحاكم . لأنه سيكون عندئذٍ « ضحية » ظروفه العائلية
القاسية ، وربما اقتنع البعض بأنه لم يكن يملك ان يفعل إلا ما
فعل . وهذا كله هروب من المسؤولية الحقيقية : مسؤولية
الاختيار الواعي ، المخطط ، المرسوم ، الذي تخلى فيه السادات
عن طبقته الأصلية وانجاز بكل قوة إلى صف أصحاب الملايين
الجدد .

ومع ذلك فإن هيكمل يبرز هذا العامل إلى حد تصوير المسألة
كما لو كانت مسألة إنسان مصاب بمجموعة من العقد النفسية
التي لم يكن يستطيع التخلص من تأثيرها طوال حياته . وإذا
قال البعض ، دفاعا عن هيكمل ، إنه لم يفعل ذلك إلا في
الفصول الاولى . بينما خصص الفصول التالية للعوامل
الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الموضوعية ، فإن هيكمل نفسه

يعود فيؤكد التهمة الموجهة إليه حين يقول في الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد ان عرض ملحمته الطويلة عن السادات ، وأراد ان يلخص في النهاية ما انتهى إليه من نتائج : « يمكن الآن بأثر رجعي أن يقال أن غلطة السادات الكبرى تمثلت في توضيحته بالأهداف الاستراتيجية لمصر من أجل مناورات تكتيكية كان مشكوكا منذ البداية في قيمتها . ويمكن ان يقال - وبحق - أن حرب أكتوبر كانت فرصته الكبرى ، بل كانت فرصة لم تتح لحاكم مصري قبله في تاريخ مصر الحديث ، بما في ذلك محمد علي وجمال عبد الناصر ، ولكنه ألقى بكل شيء في الهواء . وربما كانت المسؤولية تقع على نوع الحياة التي عاشها ، او ربما كانت تقع على نقص حصيلته من التعليم والعلم ، وكلها عوامل تجعل من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » .

هنا ، وفي نهاية الكتاب ، يعتمد هيكل إلى استخدام التعليقات الشخصية ، مثل نوع الحياة التي عاشها الحاكم ، أو نقص تعليمه ، لكي يفسر بها أخطر الأحداث - وكان السادات لو كان أكثر علما لتغيرت سياساته جميعا . أما المصالح والانتفاءات والارتباطات ، فلا مكان لها في تعليقات هيكل . فظروف الحاكم ، من حيث هو فرد معين نشأ في أوضاع معينة ، هي التي تفسر كل شيء . وإن المرء ليعجب كيف يقبل مفكر ومحلل كبير ، كان أقرب المقربين الى حكام أكبر بلد عربي خلال ربع قرن من الزمان على الأقل ، ان يقدم مثل هذا التعليل الجزئي

الضيق لأحداث سياسية كبرى ، ويتجاهل عوامل أساسية مثل اختيار الحاكم أن ينتمي الى الشريحة العليا للمجتمع ويربط مصيره بها . مثل اتباعه اسلوبا للحكم غير مستند الى إرادة شعبية تعبر عن نفسها تعبيرا حراسليا . فهل يكون من المستغرب بعد ذلك ان تكون النتيجة التي يصل اليها تحليله هي أن « من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » ؟

وكل ما أستطيع ان أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد في التحليل ، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من حكام أفراد بعيدين عن الديمقراطية ، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بإرادة فردية مطلقة ، لن يستطيعوا أن يخرجوا في تحليلاتهم وتفسيراتهم عن إطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان .

* * *

إن المناقشة الطويلة التي قمنا بها ، على مدى هذه الحلقة والحلقتين السابقتين ، لردود الفعل على ما كتبه هيكل ، إنما كانت تستهدف ، قبل كل شيء ، إظهار عناصر الضعف والتفكك في الجو الفكري الذي عاش في ظله هيكل وخصومه معا . فالجميع يقعون في أخطاء متشابهة ، وإن كانت هذه الأخطاء مكشوفة مفضوحة في بعض الحالات ، وغير ظاهرة للعيان في حالات أخرى .

وأبرز هذه الأخطاء هو الخلط بين العوامل

الشخصية والعوامل الموضوعية في تحليل الظواهر السياسية واصدار الأحكام على تصرفات رجال الدولة . هذا الخطأ واضح كالشمس في استنكار الساداتيين لعدم الوفاء وانتهاك الحرمات ونش القبور ، ولكنه ظاهر أيضا في تأكيدات هيكل ، في مواضع كثيرة من كتاباته ، بأن نقد الحكام بعد موتهم ليس من الشجاعة في شيء . ان المنهج الفكري واحد ، وإن كان يطبق في حالة هيكل - كما يحدث دائما - بطريقة أكثر ذكاء وخفاء .

ومن شأن اتباع هذا المنهج ان يبدو الصراع حول المسائل السياسية الكبرى كما لو كان ثارا بين اشخاص . وهكذا يقول البعض ، تأييدا لموقف هيكل ضد مهاجميه : أين كنتم عندما كان عبد الناصر يُشتم؟ فإرد البعض الآخر ممن ينقد حملة هيكل على السادات ، ولماذا هاجمت دكتاتورية السادات وسكت عن دكتاتورية عبد الناصر؟ ويظل كل من الطرفين حريصا ، قبل كل شيء ، على ألا يوجه اللوم الى الرئيس الذي يدافع عنه ويترك الآخر ، اما القضية الأصلية ، وهي ان حق النقد ينبغي ان يكون مباحا للجميع ، وفي عهود كل الحكام ، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم ، فلم يدافع عنها أحد .

وحيث تنور العواصف ضد هيكل من صحفيين كانوا زملاء له ، ثم اندمجوا في العهد الساداتي ، يعلق على ذلك بأسف قائلا : « ليس بينهم من لم أقف معه في احلك الظروف ولم افعل كل ما في وسعي لمساعدته ، ولولا اني لا أريد ان أمنّ على

احدا ، لذكرتهم لك واحدا واحدا وبالاسم ورويت ما قدمته لهم » . (٦)

إنه هنا يلخص الموقف كله : فهو يتصور انه بمثل هذه الاشارات الى الخدمات الشخصية التي اسداها يرد على نقاده ، وينسى ان القضايا المثارة أخطر بكثير من منطق الخدمات والمساعدات الفردية ، ويثبت انه لا يختلف عن مهاجميه ممن خضعوا لمنطق الحكم المطلق وعجزوا عن تفسير الظواهر العامة إلا من خلال سلوك الافراد .

(٦) حديث مع صلاح عيسى في « الاهالي » بتاريخ ٢٧ / ٤ / ١٩٨٣ .

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

من سمات عهود القمع الفكري وكبت الرأي المعارض انها تنشئ أجيالا لا تعرف التاريخ الا في صورة مشوهة . فحين تكون وجهات النظر المتباينة متاحة يستطيع العقل الناضج أن يكون صورة صحيحة عن احداث التاريخ وتياراته ، ويصدر احكاما سليمة على السياسات التي تحكمت في صياغته . اما حين يسري الحظر الكامل على وجهات النظر التي تخالف موقف السلطة الحاكمة ، فكيف نتوقع من اي جيل لم يتعرض الا لوجهة النظر هذه ، أن يفهم احداث التاريخ ويصدر حكما صحيحا عليها ؟

وأستطيع أن أقول ان الاجيال التي تقل اعمارها عن خمسة واربعين عاما ، وهي بالطبع تشكل الاغلبية في العالم العربي المعاصر ، لا تعرف عن تاريخ ما قبل الثورة ١٩٥٢ سوى معلومات غير موضوعية وغير منصفة . هذا بالطبع لا يمنع من ان يكون ثمة افراد هنا وهناك بذلوا جهودا مضيئة في القراءة والاطلاع والبحث عن الحقائق من مصادرها الاصلية ، بحيث لا يسري عليهم هذا الحكم ، ولكن مثل هذه الجهود لاتتاح الا

للقلة القليلة ، بحيث يمكن القول ان الجيل بوجه عام لم يعد يعرف ذلك التاريخ الا من خلال وجهة نظر معادية له ، ومن ثم فقد حرصت كل الحرص على تشويبه .

كانت تجربة مصر مع الديمقراطية تجربة فريدة بحق . فمنذ القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية ، حاول حكام مصر في ذلك الحين ، وهم أتراك او انصاف اتراك ، ان يستغلوها لحسابهم ، وجندوا بالفعل عددا من الاعوان والاذناب ، ولكن كان هناك دائما من يتصدون للقهر والطغيان ، وشهدت هذه المجالس مواقف مجيدة كان نواب الشعب فيها يدافعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم ، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقوقه . كانت تجربة ديمقراطية مبكرة ، سبقت نظيراتها في كثير من البلاد الاوربية ، وكانت شهادة بالغة الدلالة على ان الشعب يستطيع ان يجني من الديمقراطية مكاسب هامة ، مهما كانت قوة التيارات التي تقف في وجه تطوره .

ولقد كانت هذه التيارات قوية بغير شك . فقد كان هناك القصر (الخديوي في البدء ، ثم الملوك بعد ذلك) ، وكان هناك الانجليز ، وكان هناك اعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح ، ولم يكن الطريق بالتالي سهلا على الاطلاق . ومع ذلك فقد كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته في كل فرصة تتاح له .

وحين قامت الثورة ١٩١٩ في مصر ، لم تكن الثورة التي

عمت البلاد من اقصاها الى اقصاها ، والتي شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا ، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطي في الكفاح من اجل الوطن - لم تكن هذه الثورة كفاحا ضد الاجنبي المحتل فحسب ، بل كانت في الوقت ذاته جهادا من اجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية للشعب ، وكان من ابرز مظاهر النضج السياسي في ذلك الحين وجود وعي كامل بان الكفاح من اجل الاستقلال والكفاح من اجل الديمقراطية لا ينفصلان .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، تميزت الحياة السياسية بطابع الصراع العنيف ، الذي تحدت معالمه بوضوح تام ، بين تيارين : تيار رجعي يمثل القصر والانجليز واعوانهما ، وتيار شعبي مستنير يمثل الوفد . ولم يكن الوفد حزبا مثاليا ، بل كانت في داخله تيارات متعارضة ، كما كان يضم شرائح متباينة من المجتمع الى الحد الذي يجعله اقرب ما يكون الى صيغة « تحالف قوى الشعب » ، تلك الصيغة التي بذلت فيما بعد محاولات لتطبيقها في اطار غير ديمقراطي ، فلم تلق نجاحا .

ومع ذلك كان في الوفد ميزتان اساسيتان : الاولى انه كان على وعي تام بأن مصدر قوته هو التأييد الشعبي الساحق ، ومن ثم فقد كان في اوقات الازمات يقف بصلافة في الدفاع عن الدستور وعن حقوق الشعب التي هي رصيده الاكبر . والثانية

هي مرونته وقدرته على تطوير نفسه وفقا للاحداث ، مما أتاح له ان يصمد صمودا رائعا ، طوال الفترة الواقعة بين ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، على الرغم من كل حملات التشويه والتشنيع التي كانت تشن ضده بانتظام . وبفضل هاتين الميزتين استطاع الوفد ان يكتسح احزاب الاقلية ، التي خلقها القصر والانجليز لمحاربته ، في كل انتخابات تجري بقدر معتول من الحرية . وكان آخر انتصاراته ، واكثرها مدعاة للدهشة في نظر خصومه ، هو فوزه الساحق في الانتخابات التي اجريت في اواخر ١٩٤٩ ، بعد فترة بدا فيها لخصومه في الداخل والخارج انهم افلحوا في تشويه صورته عن طريق اختلاق تفسير كاذب لاحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وعن طريق انشقاق مكرم عبيد ونشره « كتابا اسود » ضد الوفد ، وعن طريق انشاء دار « اخبار اليوم » الصحيفة خصيصا لخدمة اهداف الملك والانجليز والتخصص في تشويه صورة الوفد .

اننا لانقدم هنا استطرادا خارجا عن الموضوع ، ولا نود ان نقطع حبل الاحداث التي اثارها كتاب هيكل او التي ظهر كرد فعل عليها ، اذ ان هذه الملاحظات تدخل في صميم الموضوع ، وهي في رأينا تكمن في قلب المأساة الفكرية والسياسية التي تعاني منها مصر والامة العربية في الوقت الراهن . فهناك كما قلنا جيل يجهل هذه الاحداث او لايعرفها الا من خلال ما كتبه عنها خصومها منذ عام ١٩٥٢ . ومن حق هذا الجيل على من شهدوا

هذه الفترة بوعي وفهم ان يدلوا بشهادتهم ، وسواء اقتنعوا بهذه الشهادة ام لم يقتنعوا ، فلينظروا اليها على انها مادة خام تساعدكم على المزيد من التحليل والتفكير .

كانت الفترة التي تولى فيها الوفد السلطة ، بعد انتصاره الساحق في آخر انتخابات اجريت قبل الثورة ، وآخر انتخابات حرة في تاريخ مصر ، فترة فريدة بحق في تاريخ هذه المنطقة كلها . ومن المؤسف حقا أن احداث عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ لم تنل حظها من الدراسة والتحليل ، مع ان هذه الفترة بالذات تلقي الضوء على الكثير جدا من التطورات التالية . ولن يسمح لنا المجال ها هنا ، ولا الحرص على الاحتفاظ بتسلسل المناقشة وترباطها ، بأن نتحدث بأي شيء من التفصيل عن هذه الفترة الحاسمة التي تنطوي على مفاتيح تفسر احداثا كثيرة وقعت فيما بعد ، ولكن حسبنا ان نشير في عجالة الى الخطوط العريضة لاحداث هاتين السنتين الحاسمتين ، اللتين بدأتا عند استدارة القرن العشرين الى نصفه الثاني - وكانتا نقطة تحول اساسية بين التاريخ السابق والتاريخ اللاحق .

في هاتين السنتين الحاسمتين وقعت الاحداث الكبرى الآتية :

١ - تركت الحرية للصحافة لكي تهاجم الملك - اقوى سلطة في البلد ، بارتكازه على قوتي الانجليز والجيش - واتخذ الهجوم في بعض الاحيان طابع الفضح المباشر لتصرفات

الملك واسرته . وكان مما ساعد على ضمان هذه الحرية ، معركة مشهورة نشبت في ذلك الحين حول تشريعات مقيدة للصحافة (وهي تشريعات لا تساوي شيئا اذا ما قيست بالقيود الفعلية التي اصبحت تمارس ضد حرية الصحافة بعد عام ١٩٥٢) ، واستطاع فيها الضغط الشعبي ، ممثلا في حملة صحفية رائعة ضد 'التشريعات الجديدة' ، ان يتتصر في النهاية ، فسحبت التشريعات وتأكدت حرية الصحافة .

٢ - قامت الحكومة ، استجابة لمطالبات شعبية واسعة النطاق ايضا ، بالغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وبدأ عهد الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القناة . وبقدر ما كانت حركة الكفاح المسلح ارتجالية في البداية ، فانها كانت تحمل للدول الغربية الطامعة في المنطقة ، وعلى رأسها القوة الامبريالية الجديدة (امريكا) ، نذرا خطيرة الى ابعد حد : هي تكوين نواة لجيش شعبي مدرب على مكافحة الاستعمار ، وهو اكبر خطر تخشاه هذه القوى الاجنبية ، وخاصة اذا انتقلت عدواه فيما بعد الى الاقطار العربية الاخرى .

٣ - وضعت اسس راسخة لمبادئ العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم ، فطبق مبدأ مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجاني في الجامعة الى حد

بعيد ، وطبق طه حسين ، حين كان وزيرا للتعليم ، مبدأ « التعليم كالماء والهواء » ، وكانت تلك هي البداية الحقيقية للتحويل الاجتماعي ، ليس فقط في التعليم ، بل في فرص العمل وادارة دفة المجتمع .

وهكذا كانت تلك التجربة الاخيرة لحكم الوفد هي ذروة التطور الديمقراطي الذي سارت فيه مصر طوال فترة لاتقل عن ثلاثة ارباع القرن . ومن الملفت للنظر ان هذه التجربة الرائعة كانت تتم في وجه عقبات هائلة ، ولم يكن طريقها سهلا او معبدا على الاطلاق ، اذ كان هناك ملك مستبد يشعر بالخطر الذي يتهده من هذه التطورات ، ويتحين الفرص لاسقاط الحكومة التي ستؤدي سياستها حتما الى القضاء عليه ، وكان هناك احتلال بريطاني يريد ان يثبت اقدامه ويتعاون مع اعداء الحكومة الوطنية بكل الوسائل ، وكان هناك جيش يدين قاداته بالولاء المطلق للقصر . ومع كل هذه المعوقات تحقق الكثير ، وازداد الشعب التفافا حول حكومته التي كانت تطور نفسها مع مطالب الجماهير ، وكانت الاجنحة التقدمية فيها تكتسب مزيدا من الشعبية على حساب الاجنحة الاكثر محافظة . ولم يكن امام الملك ، ازاء هذا التأييد الشعبي الجارف لحكومته ، الا ان يلجأ الى التآمر من اجل ازاحة الحكم الوطني ، فكان حريق القاهرة ، أو الثورة المضادة التي اثبتت ، بعد وقت قصير ، فشلها الكامل ، وكشفت النظام الملكي في عجزه وتقلبه ووصوله الى

طريق مسدود .

لماذا ، اذن ، نتحدث عن هذه الفترة ، وما علاقتها بموضوعنا الاصلي ؟ السبب الاول هو ان هذه الفترة مجهولة لدى ابناء الجيل الاوسط والاصغر في عالمنا العربي بوجه عام ، وفي مصر بوجه خاص^(١) . والكثير منهم لا يعرف عن هذا العهد الا مجموعة من القوالب اللفظية التي تكرر ترديدها على اسماعهم الى حد انهم اصبحوا يأخذونها كما لو كانت من المسلمات المؤكدة ، كالحديث عن « الفساد » في عهد ما قبل الثورة - وعن « فشل التجربة الحزبية » وعن « تخطيط الاحزاب وسعيها الى مصالحها الضيقة » وعن « الازمة التي انتهت اليها الديمقراطية الحزبية قبل الثورة » ، الى آخر هذه العبارات التي يعرفها الجميع ، والتي تخفي في واقع الامر اهم معالم تلك التجربة الخصبة الى ابعد حد .

(١) يمكن القول ان عهد عبد الناصر بدوره اصبح تاريخا غير واضح المعالم بالنسبة الى جيل الشباب الحالي ، ممن تقل اعمارهم عن الثلاثين . ذلك لان العهد الذي تلاه ، والذي كان بدوره حكما فرديا ، لم يتح الفرصة لهذا الجيل كما تكون له رؤية تاريخية متوازنة لعهد عبد الناصر ، ومن هنا كان ابناء هذا الجيل اما متحمسين للعهد الناصري الى درجة الرومانتيكية غير المرتبطة بالواقع ، واما متأثرين بالدعايات المضادة التي تقدم للعهد صورة مشوهة غير واقعية ايضا . وهذا مثال آخر للتشوية الذي يلحق بالتاريخ من جراء القمع وكبت الحريات وتحريف كل عهد لتاريخ العهد السابق عليه .

اما السبب الثاني فهو تلك المواقف غير المنصفة التي وقفها هيكل من تلك التجربة .

كان هيكل ، منذ بداية نضجه الصحفي ، منتسبا الى مدرسة « اخبار اليوم » في الصحافة ، وهي مدرسة لها سمات خاصة ، اهمها الولاء للقصر الملكي وتأيد احزاب الاقلية والدعاية لكل قوة معادية لحزب الاغلبية الشعبية ، اعني الوفد . وكان قطب هذه المدرسة ومعلمها الاكبر هو « محمد التابعي » ، وهو صحفي مخضرم كان يؤمن بأهمية الاثارة الصحفية عن طريق الفضائح والجنس في اجتذاب مزيد من القراء لاية جريدة . ومن الانصاف لهيكل ان نقول ان مجرد انتائه ، خلال فترة هامة من حياته الصحفية ، الى دار « اخبار اليوم » لا يعني بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الاسس التي قامت عليها هذه الدار . ولكن من الانصاف للتاريخ ان نقول انه لم يبد اي نوع من التمرد الواضح عليها .

كانت هذه الدار التي أنشئت أساسا لتلطيف سمعة الوفد (وقد أثبتت انتخابات آخر سنة ١٩٤٩ أنها فشلت في ذلك فشلا ذريعا) ، هي التي مجدت مجموعة الشباب التي كان ينتمي اليها انور السادات ، وعلى رأسها المغامر المشبوه حسين توفيق ، وهكذا كانت تروي عنهم حكايات اسطورية ، وكان الغطاء الوطني لعملياتهم هو العداء لقوات الاحتلال البريطاني ، ولكن الهدف الحقيقي منها هو تخليص القصر من أعدائه ، عن

طريق التصفية الجسدية ، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية في ذلك الحين ، مصطفى النحاس .

ولقد تضمّن « خريف الغضب » تعبيرات كثيرة تحمل في طياتها اعترافا بالدور الوطني الذي قام به الوفد ، وبالفارق الشاسع ، في هذه الناحية ، بين الوفد وأحزاب الأقلية الأخرى . فهو مثلاً يتحدث عن حزب الوفد المصري الذي يقوده مصطفى النحاس والذي كان يمثل اغلبية الوطنيين في مصر » . ويعصّر حكماً مثل : « أما الوفد - وبرغم كل محاولات تزوير الانتخابات - فقد ظل حزب الأغلبية ، يتمتع بتأييد شعبي لا ينازعه فيه أي حزب سياسي آخر » . كما يشير بوضوح الى المعارك الدستورية المجيدة التي خاضها الوفد ضد القصر ، ويؤكد ان « كفاح » السادات ضد الوفد ومحاولاته اغتيال مصطفى النحاس واشتراكه في مقتل أمين عثمان ، كل ذلك كان لصالح السراي ، وقد تحقق عن طريق علاقة السادات بالحرس الحديدي ، الذي يبدو انه كان يقوم بدور « عمالة مزدوجة » ، لصالح القصر في الواقع ، ولصالح الوطنية المتطرفة في الظاهر ، وكان مثل كثير من القوى شديدة التطرف ، عاملاً لحساب قوى شديدة الرجعية ، بل ان هيكلاً يتحدث عن « صحافة القصر » (ويقصد اخبار اليوم ، حيث كان يعمل) التي راحت تصور هؤلاء الشباب على انهم ابطال شعبيون . . .

وكل هذه كلمات صحيحة كل الصحة ، ومنصفة لتاريخ مصر
في تلك الفترة .

ولكن المفارقة تظهر حين يعود هيكل فيصدر أحكاما
مناقضة ، يبرر بها استيلاء الجيش على السلطة في ١٩٥٢
فيقول : « في ذلك المناخ (الأربعينات) بدت السياسات
المصرية التقليدية القائمة على المناورة والتوازن بين الانجليز
والقصر والوفد - بدت شيئا فوات اوانه لأنه يفقد صلته بالحقائق
الجديدة يوما بعد يوم . كان لا بد من تغيير ، ولم تكن هناك
فائدة ترجى من انتظار التغيير بواسطة حزب سياسي قديم او
جديد ، فلقد كان التركيب الطبقي في مصر لا يزال في حالة
سيولة ، الأمر الذي يمنع ظهور قاعدة اجتماعية صلبة يقوم عليها
تنظيم سياسي حقيقي ويزدهر . وهكذا فإنه حين جاء التغيير ،
كان مصدره هو القوة الوحيدة التي تمثل ارادة الاستمرار من
ناحية ، وتملك قدرة العمل من ناحية اخرى - الجيش » .

هنا يعود هيكل القديم ، هيكل الخمسينات ، الى الكلام ،
على الرغم من أنه كان يكتب في الثمانينات . فمن قال ان
السياسة المصرية قبل الثورة قامت على المناورة والتوازن بين
الانجليز والقصر والوفد ؟ لقد كانت تقوم ، كما تدل
عبارات هيكل نفسه التي اقتبسناها من قبل ، على صراع
واضح المعالم بين الشعب ، ممثلا في الوفد من جهة ، والقصر
والانجليز وأحزاب الاقلية من جهة اخرى . كان صراعا حول

قضايا متبلورة تماما ، القضية الوطنية - الديمقراطية - حكم الدستور - توفير المطالب الشعبية . وعلى العكس من ذلك يمكن القول ان أول ما حرصت عليه ثورة ٢٣ يوليو كان إسكات الصراع ، الذي يرمز له إعدام اثنين من العمال (خميس والبكري) بالتهمة التقليدية (الشيوعية) في الأيام الاولى للثورة ، ثم ظهور مختلف التنظيمات القائمة على فكرة التوازن ، لا الصراع ، وأولها هيئة التحرير .

وهكذا يتحدث هيكل حيناً بطريقة تدل على أنه أدرك حقيقة القوى المتفاعلة في تلك الفترة المظلومة من تاريخ مصر ، ولكنه سرعان ما يعود الى موقفه التقليدي ، ذلك الموقف الذي وقفته ثورة يوليو منذ البداية ، وأعني به وضع الأحزاب جميعاً في سلة واحدة وكأنها كلها خانت وفشلت وتنكرت للحركة الوطنية ، ثم الترويج لتلك الأسطورة التي لم يكن لها أي أساس من الواقع او التاريخ ، وأعني بها انه « لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يأتي التغيير من حزب سياسي » ، تلك الأسطورة التي تريد أن تسدل ستاراً من النسيان على تجربة ديمقراطية عظيمة ، كانت تبشر بتطورات وتصحيحات هائلة لمسارها ، لو كتب لها البقاء بعد إزاحة العقبات التي كانت تعرقل مسيرتها حيناً وتبطيء حركتها حيناً آخر .

من أجل هذا يقدم هيكل تبريرات لمجموعة الاجراءات التي أدت الى القضاء على التجربة الحزبية في مصر ، وهي اجراءات

تكررت ، مع اختلاف في التفاصيل ، في كثير من الأقطار العربية الأخرى حين قامت فيها حركات عسكرية مماثلة ، وهكذا يذهب هيكل الى ان الشرعية التقليدية في بلاد العالم الثالث لها أساس قبلي أو ديني ، وحين تحاول أن تنتقل في العالم الثالث الى شرعية ذات اساس دستوري وقانوني ، تستند في عملية الانتقال هذه الى ضرورات الاستمرار ، وتمثلها « البيروقراطية » بما فيها القوات المسلحة » ، وكذلك الى شخصية الزعيم .

ولست ادري على أي بلد من بلاد العالم الثالث ينطبق هذا الكلام ، لأن عمليات الانتقال التي تركز على القوات المسلحة وعلى شخصية الزعيم لا تمثل في أية حال من الحالات تحولا نحو الشرعية الدستورية والقانونية . ولكن ما أعلمه حق العلم هو أن هذا الكلام حين يقال عن مصر بالذات ، يكون عدوانا صارخا على الحقيقة والتاريخ ، فقد كانت مصر شرعية دستورية قائمة بالفعل ، وكانت تكافح ببطولة من أجل تطهير نفسها من القوى المعادية للدستور . وليس صحيحا ان حركة الجيش ، في مصر او غيرها ، كانت محاولة للانتقال من شرعية تقليدية الى شرعية دستورية ، بل ان العكس هو الصحيح : اذ كانت الحركة في اساسها انتقالا من تجربة ناضجة في الشرعية الدستورية الى غمط في الحكم لا يكثر كثيرا بمعنى الشرعية ، ولا يعترف بالدستور الا على الورق .

وبمثل هذه الفلسفة المضللة تم تبرير كافة الاجراءات التي

اتخذت في الستين الأوليين للشورة ، من أجل التضييق على الأحزاب (وكان المقصود بها واقعا حزب الوفد وحده) ، ثم فرض شروط صعبة التحقيق عليها ، ثم الادعاء بأنها لم تتمكن من تلبية هذه الشروط ، ثم يتكرر المسلسل المعتاد ، الذي أصبح « نموذجاً » تحتذيه الانقلابات العسكرية في كافة أرجاء العالم الثالث : إيقاف المسار الطبيعي للدستور ، وإلغاء الأحزاب والانتخابات ، والعمل بموجب قرارات أو مراسيم ، لمدة ثلاثة اشهر ، ثم ستة اشهر ، ثم سنوات وسنوات . وفي كل حالة يجد النظام من يبرر له إجراءاته عن طريق « فلاسفة » قادرين على إقناع الناس ، أو إرغامهم على الاقتناع ، بانهم يعيشون في ظل شرعية من نوع جديد ، شرعية « ثورية » تتضاءل الى جانبها المفاهيم « العتيقة » للشرعية .

هكذا فعل هيكل ، وهكذا فعل كثيرون غيره من منظري الحكم السلطي اللاديمقراطي ، ولكن حساب التاريخ لهيكل سيكون اشدّ عسرا ، لأنه كان اكثر من الآخرين ذكاء ووعيا ، ولأنه ادرك حقائق الأوضاع في لمحات سريعة في كتابه الأخير ، ولكنه سرعان ما عاد الى طريقه المألوف ، طريق العداء للديمقراطية المرتكزة على أساس شعبي والمعبرة عن الارادة الحقيقية للجماهير .

الفصل السادس

ورثه مصر ، ونسي !

الفصل السادس

ورثته مصر ، ونسي !

في كتاب هيكل عن السادات نقطتان تتسمان بالضعف الشديد ، مرّ عليهما المؤلف بتعجل وبغير تحليل مقنع ، وإنما حاول أن يقدم لهما تعليقات أدت في الواقع إلى زيادة موقفه ضعفا . هاتان النقطتان تأتيان عند بداية علاقة السادات بعبد الناصر والثورة المصرية ، وعند نهاية عهد عبد الناصر واختياره أنور السادات لخلافته . فكيف يصف هيكل هاتين اللحظتين الحاسمتين : لحظة انضمام السادات إلى تنظيم الضباط الأحرار ، التي حصل فيها على جواز المرور إلى تاريخ مصر ، ولحظة تعيين عبد الناصر للسادات نائبا به ، قبل وفاته بوقت قصير ، وهي اللحظة التي ضمنت له دخول هذا التاريخ من أوسع أبوابه ؟

يقول هيكل في « خريف الغضب » : « في أواخر سنة ١٩٥١ أصبح أنور السادات عضوا في تنظيم الضباط الأحرار . وقد كان كل أعضاء اللجنة التأسيسية للتنظيم يعارضون انضمامه باستثناء جمال عبد الناصر . كانوا يعرفون السجل بطبيعة الحال . . وكان عبد الناصر يعرف يقينا بكل هذه الوقائع » .

ما هي هذه الوقائع التي أدت بأعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار الى رفض انضمام أنور السادات الى تنظيمهم ، والتي أصر عبد الناصر على قبوله في التنظيم على الرغم من معرفته اليقينية بها ، وعلى الرغم من معارضة جميع أعضاء اللجنة الآخرين لهذا القبول ؟ كانت هذه الوقائع ، كما شرح هيكل في كتابه بإسهاب ، تشمل : الانضمام الى الحرس الحديدي الذي كان يخدم أغراض الملك - السعي إلى تخليص الملك من أقوى خصومه السياسيين بالتصفية الجسدية - الاتصال برجال القصر وعلى رأسهم « يوسف رشاد » وتلقى رشوة مقدارها ألف جنيه من هذا الأخير « لكي يؤسس بيتا ويشتري سيارة ، ويبدأ حياة جديدة » وغيرها من الوقائع المثيرة للارتباب .

كيف إذن أصرّ عبد الناصر على قبول السادات في التنظيم ، وتحمل بذلك مخاطرة ان يوصف بالدكتاتورية لأنه رجّح صوته الوحيد على أصوات جميع الأعضاء الآخرين الرافضين ؟ يقدم هيكل في هذا الصدد ما يسميه « اجتهادات » يحاول بها تفسير هذا الاصرار وهي اجتهادات لا تفسر في الواقع شيئاً ، بل يمكن الرد عليها بسهولة تامة . فمن الجائز أن عبد الناصر اراد معرفة اخبار القصر مستغلا علاقة السادات بيوسف رشاد . ولو صح هذا التعليل لكان من الواجب ان يُبعد السادات عن التنظيم بمجرد نجاح الثورة وإغلاق القصر وطرد صاحبه من البلاد ، فما فائدة الاحتفاظ بعميل سابق للقصر بعد ان انتهت مهمته ؟ ومع

ذلك فإن السادات لم يكن أول من خرج من أعضاء مجلس الثورة ، وإنما خرج الجميع وبقي هو !

وينطبق هذا الكلام نفسه على التعليل الآخر الذي قدمه هيكل ، وهو تضليل القصر من أخبار الضباط الأحرار من خلال الصلة السابقة نفسها . ففي هذه الحالة أيضا كان من الواجب ان تنتهي مهمة السادات بمجرد نجاح الثورة .

أما تعليل عبد الناصر نفسه ، كما رواه هيكل فيما بعد ، فهو « أردت ان أضع في إطار الحركة كل هؤلاء الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسي في مصر » . هنا أيضا نجد أنفسنا غير مقتنعين : هل أي ضابط اقترن اسمه بالعمل السياسي يمكن ان يقبل في التنظيم ، حتى لو كان العمل السياسي الذي مارسه عمالة مزدوجة وخدمة لأهداف القصر ، أي بكلمة واحدة ، حتى لو كان هذا العمل السياسي « خيانة » ؟ لو افترضنا ان حاجة التنظيم في بدايته الى عناصر نشطة وممارسة كانت هي التي أرغمت عبد الناصر على قبول شخصية مثيرة للشبهات كهذه ، فإن هذه الحاجة تنتهي تماما بمجرد ان ترسخ أقدام التنظيم ويصبح هو الذي يحكم مصر بلا منازع . ويبدو أن أعضاء مجلس الثورة قد نظروا الى الأمر على هذا النحو بدليل قول هيكل ان هؤلاء الأعضاء ، بعد يولييه ١٩٥٢ مباشرة ، « تجددت شكوكهم فيه ، بل وبدأ معظمهم يوجه اليه في حضوره بعض الملاحظات الجارحة ، ولكن عبد الناصر كان يحميه . »

هناك اذن سر في موضوع دخول السادات في تنظيم الضباط الأحرار ، واستمرار عضويته فيه بعد ان انتفت الأسباب التي يقال انها هي التي دعت الى قبوله . ولا تقدم الينا رواية هيكل اي تحليل مقنع لهذا السر ، بل إنها تترك الموضوع عائما ، وتكاد توحي بان عبد الناصر كان لديه ميل خاص ، غير مفهوم ، إلى السادات ، على الرغم من علمه بتاريخه .

تلك إذن لحظة حاسمة في تاريخ السادات ، وفي تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، تركها هيكل غير مفهومه ، فهل كان هيكل يستخف باهمية هذه اللحظة ، حين قدم تعليقاته غير المقنعة ، أم كان يخفي شيئا لا يريد ان يعلن عنه ، ام كان يستخف بقدرة القاريء على الشك والتساؤل ، أم كان - أخيرا - يؤمن بحق عبد الناصر المطلق في ان يفعل ما يشاء بغير أسباب ؟

لترك هذه اللحظة مؤقتا ، ولننتقل الى لحظة أخرى اهم منها بكثير ، لحظة كانت مصيرية بحق ، هي تلك التي قرر فيها عبد الناصر ان يعين السادات بالذات ، ومن دون أبناء مصر الذين كانوا عندئذ يزدون عن الثلاثين مليونا ، ليكون نائبا لرئيس الجمهورية ، وخليفته في حكم مصر .

ونستمع ، مرة أخرى ، الى ما يقوله هيكل

في فصل بعنوان « في ظل عبد الناصر » ، يقول هيكل :

« كان طبيعيا أنه حين تعرض عبدالناصر للنوبة القلبية الأولى في سبتمبر ١٩٦٩ أن يضع السادات على رأس لجنة تضم بعض القريبين منه وتتولى تسير شئون الدولة في غيابه . وعلى أي حال فإن هذه اللجنة لم يقدر لها أن تباشر عملا حقيقيا . فما لبث عبدالناصر ان نسي نوبته القلبية وعاد يمارس شواغله ومسئوليته . وفي ديسمبر عام ١٩٦٩ كان على عبدالناصر أن يشارك في أعمال مؤتمر القمة العربي في الرباط بالمغرب . . وعندما دعاني الى الجلوس بجانبه بعد إقلاع الطائرة كما كان يفعل دائما ، فإنه أشار الى بالجلوس وعلى وجهه ابتسامة ، وفوجئت به يقول : « هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ » ولم أكن أعرف . وقال لي : « كان أنور السادات سيمرّ عليّ لكي يصحبني الى المطار ، وطلبت منه أن يجيء معه بمصحفه . ولم يفهم ما عנית بهذا الطلب ، وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبا لرئيس الجمهورية في غيابي » . وأبدت دهشتي وسألت عن السبب الذي دعاه الى ذلك ، ومدّ عبدالناصر يده الى ملف كان قد وضعه أمامه . . . وكانت فيه برقية . . . تقول إن هناك معلومات بأن الجنرال أوفقيز يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في محاولة لاغتيال عبدالناصر أثناء وجوده في المغرب . . . وقد فكرت في أنه إذا فرض وصدقت المعلومات هذه المرة وحدث شيء ، فإن أنور يصلح لسد الفترة الانتقالية . . . وفي فترة الانتقال فإن دور أنور سيكون شكليا » . ثم أضاف

عبدالناصر : « إن الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن . . . وعلى أي حال فهي فترة أسبوع على أرجح الأحوال » .

وتلا ذلك حديث طويل عن شواغل عبدالناصر الكثيرة خلال الفترة التالية ، تخلله حديث آخر عن فضيحة ارتكبتها أنور السادات « وكان يمكن أن تكلفه منصبه كنائب رئيس الجمهورية ، وتغير بالتالي مجرى تاريخ مصر الحديث » ، وهي استيلاؤه بالقوة ، وعن طريق قرار جمهوري ، على قصر في الهرم كان يملكه ضابط سابق اشتغل بالأعمال الحرة . ثم حانت ساعة موت عبدالناصر . « كان السادات لا يزال حتى ذلك الوقت هو نائب الرئيس رسميا . وبكل الشواغل التي ألحت على العمل الوطني ، من مؤتمر الرباط الى زيارة موسكو السرية الى استمرار حرب الاستنزاف الى مبادرة روجرز الى المواجهة بين الملك حسين والثورة الفلسطينية في الأردن ، فإن وضع أنور السادات كنائب للرئيس كان قضية منسية حتى وان كان قد خطر للبعض - بمن فيهم جمال عبدالناصر نفسه - أن الأمر قابل لاعادة النظر فيه . وهكذا بقي أنور السادات في مكانه حتى هذه اللحظة الحزينة » .

معذرة ، أيها القارئ العزيز ، على هذا الاقتباس الطويل ؟ ولكن هذه اللحظة التي يصفها هيكل ، هي اللحظة التي يجد فيها مناسبة لاستعراض مكانته (أجلسني بجانبه كما

كان يفعل دائما) ، والتي تحدث فيها عبدالناصر الى هيكمل
بابتسامة وفاجأه بسؤاله الذي يحمل معنى الدعاية . هل تعرف
ماذا فعلت اليوم ؟ هذه اللحظة التي قدرت مصير مصر ، ومعها
الأمة العربية ، حتى يومنا هذا . في هذه اللحظة بدأت المسيرة
المشئومة المؤدية الى زيارة القدس ، والصلح والتطبيع ، وترك
لبنان والفلسطينيين لمخالب الوحش الصهيوني ، والانفتاح ،
ونهب مصر ، ووصاية البنوك الدولية والأمريكية على
اقتصادها . . . هذه اللحظة التي يعرضها هيكمل باستخفاف
شديد ، بل وينتهز الفرصة للتفاخر بذاته وبقربه الدائم من
الرئيس ، هي التي فتحت الطريق لكوارث مصر والعرب في
السبعينات ، ولهذا اقتبسها من كتاب هيكمل بالتفصيل .

ولكنني لم أقتبسها فقط لكي أبين التضاد المحزن بين جو
الخفة والسهولة الذي كان يضعه هيكمل في سطور ، وبين شبح
المصير المأساوي الذي يطل من بين سطور هيكمل ، ساخرا من
القارئ ومن هيكمل ، ومن عبدالناصر ، بل من الأمة العربية
جمعاء . . . كلا ، لم أقتبسها لغرض كهذا فقط ، وإنما اقتبسها
لكي أشرك معي القارئ في محاولة طويلة لاستخلاص المعاني
البشعة التي تنطوي عليها هذه السطور .

أول هذه المعاني هو البساطة العجيبة التي اتخذ بها قرار خطير
كهذا ونفذ على الفور : عبدالناصر يطلب الى السادات أن يجيء
معه بالمصحف أثناء مروره عليه ليصحبه الى المطار . السادات لا

يعرف السبب ، ولكن المفاجأة تنتظره ، يقسم اليمين ، وبذلك يتحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر القادم . هيكل نفسه لم يكن يعرف ، ولكن يتضح أن السبب هو تقرير عن مؤامرة محتملة في المغرب لاغتيال عبدالناصر ، مؤامرة لم ينظر اليها عبدالناصر بجدية ، ولكن لا بأس من الاحتياط ! هكذا ، بلا استشارة حتى من أقرب المقربين ، يحدد الحاكم من سيخلفه في حكم بلاده في مرحلة من أخرج المراحل التي مرت بها طوال تاريخها الحديث ، ويقرر بذلك مصير أمته من بعده . لست أدري ماذا يكون شعور القارئ حين يقرأ هذه السطور ، ولكنني أقول عن نفسي إنني شعرت بالاهانة حين وجدت مستقبلي ، ومستقبل أبنائي وبلدي ، يحدد بمثل هذا الاستخفاف ، دون أن تكون لي ، كمواطن ، كلمة ولا رأي ، ودون أن يصل صوتي عن طريق القنوات التي صاغتها تجارب طويلة للشعوب ، تتيح للناس في المجتمعات التي تحترم مواطنيها أن يختاروا من سيتحمل مسئولياتهم في مستقبل الأيام .

ولكن لدى هيكل ، بالطبع ، إجابة جاهزة . إنه يقول للقارئ : لم يكن هناك عندئذ ما يدعو الى الانزعاج ، ولا حتى الى الاهتمام ، فقد كانت المسألة مؤقتة ، لن تطول أكثر من أسبوع ، وكانت مجرد احتياط من أن تقع مؤامرة الاغتيال في المغرب ، وكل ما في الأمر هو أن السادات قد خدمه الحظ ، طوال السنوات التالية ، لأن عبدالناصر وضعه على كرسي الخلافة

ونسي أن يبعده عنه - وهو معذور في هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جساما ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع التافه ، موضوع تعيين السادات خليفة له في حكم مصر !

مرة أخرى ، لست أدري ، ماذا يكون شعور القارىء وهو يستمع الى حجة هيكل هذه ، ولكنني أقول عن نفسي انني شعرت باهانة أخرى اهانة لعقلي وتفكيري وأدميتي يوجهها الي واحد من اولئك الذين عاشوا طويلا في جو الاستخفاف بعقول الناس والاستهانة بهم .

فحسب أقوال هيكل نفسه ، وقع اختيار عبدالناصر على السادات لتسيير شئون الدولة مرتين ، لا مرة واحدة . الأولى عند اصابته بنوبة قلبية ، والثانية عندما قرأ تقارير الأمن عن المؤامرة المغربية الأمريكية المحتملة . وهذا معناه أن الاختيار لم يكن ، عشوائيا على الاطلاق ، بل كان متعمدا مقصودا . ولا شك أن الاصابة بنوبة قلبية هي إنذار كاف لأي انسان ، أي أن احتمالات النهاية لابد أن تكون قد طافت ، ولو من بعيد ، بذهن عبدالناصر . وعلى ذلك فحين يختاره خلفا له ، فإنه يعلم أن هذا يمكن أن يكون اختيارا لمستقبل بلاده . وحتى لو كانت مؤامرة المغرب مجرد اشاعة ، فانها تستدعي اختيار أصلح العناصر للمخافة ، على سبيل الاحتياط أيضا .

ولكن الكارثة الكبرى في الموضوع انه تكهن في مقتضى

الأولى هي قول عبدالناصر : « إن الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن » . . إذن كان حكم مصر « بالدور » . . . مجموعة الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة ، يتناوبون على المنصب الخطير واحدا بعد الآخر ، وفي النهاية ، وفي لحظة مرض القلب والتهديد بالاغتيال ، بقي واحد منهم ، فلا بد إذن أن يأخذ نصيبه - ونصيبه هو أن يكون خليفة لحاكم مصر .

إنني لا أشك لحظة واحدة في ذكاء هيكل الذي كان بالفعل غير عادي . ولكن الأمر الذي يذهلني بحق هو : كيف فات على هيكل ، بكل ذكائه ، المغزى الواضح والصارخ لهذا الكلام ؟ كيف يعجز هيكل الموهوب عن أن يدرك أنه ، بكلامه هذا ، يسيء الى عبدالناصر أبلغ إساءة ، ويهين مصر كلها إذ يصورها على أنها « عزبة » لا بد أن يتناوب على امتلاكها مجموعة الضباط هؤلاء « بالدور » ؟ فكّر جيدا أيها القارئ في المقياس الذي يتم على أساسه الاختيار : ليس الكفاءة ، التي لم يثبت السادات خلال حكم عبدالناصر - حسب كلام هيكل - شيئا منها ، وليس الوطنية ، فقد كان عبدالناصر وهيكل يعلمان أنه كان في وقت ما عميلا مزدوجا ، وليس وجود برنامج لانقاذ الوطن لديه ، فقد كان بشهادة هيكل عاكفا عن حياته الخاصة ، عزوفا عن القراءة والاطلاع وتثقيف نفسه ، وإنما المقياس هو أنه الوحيد الذي لم ينل بعد نصيبه من الفطيرة . . . هو أن « عليه الدور » !

أما الكارثة الثانية ، في هذه القصة الحزينة ، فهي أن عبدالناصر ، بعد أن وضع السادات في هذا المنصب الخطير ، تركه فيه لأنه « نسي » . هكذا يريدنا هيكمل أن نصدق أن شيئاً بالغ الأهمية كهذا يمكن أن ينسى بمثل هذه السهولة . ولكي يبرر لنا هذه الحجة الهزيلة يعدد أمامنا المشكلات التي انشغل بها عبد الناصر خلال الفترة التي كان السادات فيها « منسيا » في منصب الرجل الثاني في مصر . لقد كانت تلك مشكلات خطيرة حقا ، ولكن خطورتها ذاتها كانت تفرض على عبد الناصر أن يزداد تذكر لموضوع خلافته ، لا أن ينساه . فالسادات أمامه كل يوم ، وهو بالقطع لم يحصل على قرار التعيين نائبا لرئيس الجمهورية ثم أسرع يختبئ في مكان بعيد ، داعيا الى الله أن ينساه الرئيس الى أن يموت ! وخطورة المشكلات التي كان يواجهها عبد الناصر هي ذاتها أقوى مبرر لكي يتذكر في كل لحظة أن الوطن في خطر ، وأن من يخلفه في حمل الأمانة ينبغي أن يكون على مستوى المسئولية

وحتى لو لم تذكره بموضوع الخلافة تلك الأحداث الجسام ، فإن تصرفات السادات ذاتها لا بد أنها أدت الى تذكيره بنوع الاختيار الذي قام به : فقد حدثت فضيحة القصر الذي استولى عليه السادات ، بإلحاح من زوجته ، من ضابط سابق اشتغل في الأعمال الحرة (لا أدري من أين استولى عليه هو الآخر ، أو من أين أتته الأموال لشرائه) - حدثت هذه الفضيحة « بعد » تعيين السادات نائبا للرئيس ، وحسب رواية هيكمل فإن عبدالناصر

غضب غضبا شديدا عندما علم بما حدث ، ومع ذلك فإن هيكمل يذكر ، بطريقة غير مفهومة ولأسباب غير واضحة ، أن عبدالناصر عندما هدأ غضبه كافأ السادات بقصر على النيل ! وهكذا فإن عبدالناصر ، كما يصوره لنا هيكمل ، تلقى إنذارا واضحا بنوع السلوك الذي يمكن أن يسلكه السادات عندما يترك له حكم مصر . فاذا لم تكن المشكلات الدولية والقومية والوطنية الخطيرة التي كانت تشغل عبدالناصر ، عندئذ ، كفيلا بأن تذكره بضرورة اختيار خليفة وطني قادر على التصدي لها ، ألم يكن اغتصاب السادات لبيت لا يملكه ، لمجرد انه أعجب زوجته ، كافيا لكي ينبه عبدالناصر الى عيوب الرجل الذي ائتمنه على امته كلها من بعده ؟ ومع ذلك فإن عبدالناصر ، حسب رواية هيكمل ، كافأ السادات بقصر على النيل بعد فترة غضب قصيرة أيريد هيكمل أن يوحي لنا بأن تصرفات مثل الاستيلاء على بيوت الآخرين لم تكن تصدم الحس الأخلاقي لعبدالناصر ؟ أيريد أن يقنعنا بأن مغتصب مال الغير كان في نظره يستحق مكافأة - مكافأة عاجلة هي قصر على النيل ، ومكافأة آجلة هي النيل كله ، بأرضه وشعبه ؟

ولنتأمل تناقضا آخر : لقد كان عبدالناصر ، عندما عين السادات نائبا له ، يتحوط ضد مؤامرة تشترك فيها عناصر مغربية وتدبرها المخابرات المركزية الأمريكية . ولكن عبدالناصر كان ، من جهة اخرى ، يعرف أن للسادات ميولا أمريكية قوية .

وحسبنا دليلا على هذا أن نشير إلى مقال كتبه السفير الأمريكي الأسبق في مصر ، لوشيوس باتل ، تحدث فيه عن رحلة رتبها السادات وزوجته عام ١٩٦٦ ، وعاد بعدها السادات مبهورا بكل ما هو أمريكي . ويهمننا في المقال اشارة الكاتب الى أن عبدالناصر ، عندما قابله بعد ذلك في إحدى الحفلات ، قال له : « صاحبكم هذا ، أنور السادات ، محب ولهان لأمریکا » ، فلما قال له السفير : وما العيب في ذلك ؛ ليته كان هناك آخرون لديهم نفس الاتجاه في هذا البلد ضحك عبدالناصر ، « ولكن كانت هناك دائما مسحة من الاستخفاف في تعليقاته »^(١) . وبطبيعة الحال فإن مسلك السادات تجاه أمريكا خلال سنوات حكمه تجعلنا لا نشك لحظة واحدة في صحة هذه الرواية . ولكن ، كيف يكون عبدالناصر على علم بميول السادات الأمريكية القوية طوال هذا الوقت ، ثم يختاره نائبا بسبب مؤامرة أمريكية محتملة ؟ هل يقبل الأب الذي يتعرض للتهديد بالقتل من أفراد عصابة معينة ، أن يختار أحد هؤلاء الأفراد وصيا على أبنائه من بعده ؟

إن قصة خلافة السادات لعبدالناصر ، والاختيار المشؤوم الذي حدث في أحد الأيام ١٩٦٩ ، هي قصة فريدة من نوعها . ولقد كانت الرواية التي أوردتها هيكل عنها مليئة بالمتناقضات

1) Lucius D. Battle: Anwar Sadat Remembered. SAIS REVIEW. Winter 1981 — 1982, No. 3.

والمفارقات التي تستخف بعقل القارىء وتهين ذكائه ، ولا أظن أن احدا ، حتى هيكل ذاته ، يمكن أن يقتنع بهذه الرواية الملهلة . وهنا يبرز سؤال هام : إذا كان تفسير هيكل لاختيار عبدالناصر للسادات مكشوفاً في ضعفه الى هذا الحد ، فما الذي جعله يلجأ اليه ؟

أغلب الظن أن هيكل اضطر الى ترويح هذا التفسير الهزيل لأنه وجد نفسه أمام سؤال محرج ، تسأله تلك الأجيال الشابة الجديدة التي تنظر الى عبدالناصر على أنه أعلى نماذج الوطنية ، والتي رأت بنفسها ما لحق بمصر والعرب من انهيار في عهد السادات . هذا السؤال هو : كيف اختار زعيم كبير كعبدالناصر خليفة مختلفاً عنه في كل شيء مثل أنور السادات ؟ وما يزيد هذا السؤال تعقيداً ، أن هيكل أكد بصورة قاطعة أن عبدالناصر كان يعرف كل شيء عن السادات : كان يعرف ماضيه مع القصر ، وميله الى الاستمتاع بحياته بكل الطرق في حاضره ، وانبهاره بالأمريكان ، أعداء الوطن العربي الألداء منذ عام ١٩٦٧ على الأقل . وإذن يعود السؤال بإلحاح : كيف يقبل زعيم وطني أن يأتمن شخصاً مناقضاً له في كل شيء على وطنه من بعده ؟ من أجل محاولة الاجابة على هذا السؤال المحرج ، اضطر هيكل الى أن يتحدث عن تعيين نواب رئيس الجمهورية « بالدور » ، وعن « نسيان » الرئيس لنائبه في مكانه الى أن خلفه بعد موته . أعني ، بالاختصار ، اضطر هيكل الى أن يلفق إجابة لا تقنع أحداً .

وفي اعتقادي ، أولا ، أن هذا سؤال خطير وجوهري ينبغي ألا يقابل بأي استخفاف ، لأنه يتعلق بمصير الأمة العربية كلها ، الذي قامر به السادات على مائدة أمريكا بعد أن أعطاها ٩٩٪ من أوراق اللعبة ، ومن ثم فلا بد أن نلح في المطالبة بتفسير له . وفي اعتقادي ثانيا أن من المستحيل تقديم اجابة مقنعة عن هذا السؤال ، فـ إطار الموقف الذي يمثل هيكلا : أعني موقف الدفاع على طول الخط عن عبدالناصر ، والهجوم على طول الخط على السادات . فلكي نجيب عن هذا السؤال الحيوي إجابة مقنعة ، لابد أن نكون أكثر تعمقا في تحليلنا من أن نتقيد بهذا الاستقطاب الناصري - الساداتي . وسأقوم ، من جانبي ، بمحاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تبدو مستعصية على الفهم ، آملا ان ينظر القارئ الى هذا التفسير على أنه حافز للتفكير ، من حقه أن يقتنع به أو لا يقتنع ، ولكن من واجبه أن يفكر فيه بإمعان .

إن الزعيم الذي يحكم حكما غير ديمقراطي لا يقبل بجانبه إلا الأعوان الذين يطيعون ، وينحنون ، ولا يعارضون . وحين يسود الطابع الفردي في الحكم ، يظل الأعوان المحتفظون بكرامتهم والمتمسكون بآرائهم ومواقفهم ، أو حتى أولئك الذين يخالفون الزعيم لمصالح شخصية ، يظل هؤلاء يستبعدون واحدا بعد الآخر ، حتى لا يبقى في النهاية الا الرجل الذي يقول دائما : نعم . ولقد اقترب هيكلا من الحقيقة دون أن يشعر حين قال ، في نفس الفصل الذي اقتبسنا منه من قبل : « كما حدث من قبل ، وكما سيحدث فيما بعد ، فإن طبيعة أنور السادات

المستعدة للخضوع أمام الأقوى كانت هي التي حكمت موقفه .
كانت أحسن أيام هي تلك التي كان يستطيع فيها أن يلتصق
بشخصية قوية » وإذا كان هيكمل قد قصد بهذه الشخصية
القوية ، في كلامه السابق ، المشير عبدالحكيم عامر ، فإن هذا
الحكم يمكن أن ينطبق على مسلك السادات بوجه عام ، وإن
كان ذلك المسلك في نظرنا واعيا متعمدا ، وليس مجرد تعبير عن
شخصية مياله للخضوع والالتصاق بالأقوياء .

كان السادات أذكى من الجميع لأنه أدرك قانون اللعبة :
اترك الزعيم يمارس قوته وإياك أن تقول له « لا » مهما فعل .
ولكن ما ينبغي أن نتذكره هو أن هذا القانون يحتاج الى طرفين :
طرف يلتزم بالقبول والخضوع ، وطرف آخر - هو الزعيم - يجعل
مقياس قرب الناس منه هو مدى خضوعهم له ، ومدى تخليهم
عن إراداتهم الخاصة لكي يكون هو صاحب الإرادة الشاملة .
فلكي ينجح « الأذكى » ممن يجيدون فن طائفة الرأس (حتى
يعلبو فيما بعد ، كما تقول أغنية سيد درويش المشهورة) ، لابد
أن يكون الطرف الآخر الذي يتعاملون معه من ذلك النوع الذي
لا يستطيع أن يتحمل أي شخص أن يبدي استقلالا في رأيه .
ولذا كان من المستحيل أن ينجح « أهل الطائفة » مع أي زعيم
ديمقراطي .

وليتأمل القارئ دلالة العبارة التي يقول فيها هيكمل : « كان
بيت السادات في الهرم هو المكان الوحيد الذي يستطيع فيه جمال

عبدالناصر أن يذهب لكي يقضي بين حين وآخر ساعات مع صديق لم يكن يضغط على أعصابه بإثارة مناقشات سياسية أو عسكرية ملحة » . هكذا كانت « الراحة » هنا تكمن في أن يكون الصديق مطيعا لا يناقش في الأمور الهامة ، بينما الذين كانوا يناقشون ، ويعارضون ، في ظروف ما بعد هزيمة ٦٧ التي كانت تقتضي إعادة النظر في كل شيء ، هؤلاء لم يكونوا « مريحيني » .

وهكذا نصل الى القاعدة الهامة التي تحكم عملية الخلافة على السلطة في الحكم غير الديمقراطي : إن الحكم ، نتيجة لانفراده بالسلطة ، يشعر بأهمية القوة ويستأثر بها ، وبالتالي لابد أن يزيح من طريقه كل من يحاول الحد من هذه القوة عن طريق المعارضة ، وكل من يرفض انفراده بالقرار ، وهكذا يكون الضعيف الراضخ ، هو الذي يبقى في النهاية بعد سلسلة التصفيات . وبعبارة أشد وضوحا ، فإن ظاهرة السادات إفراز طبيعي للحكم المطلق ، وأسلوب الحكم الذي انتهجه عبدالناصر كان لابد أن يؤدي في النهاية الى خليفة مثل أنور السادات .

وهنا تتضح لنا صفة تبدو على قدر كبير من الغرابة ، ولكنها تفسر الموضوع الذي نحن بصدد تفسيره كاملا : فالحاكم القوي يؤدي في هذه الحالة - بصورة حتمية - الى الحاكم الضعيف ، والمتشدد أمام قوى الاستعمار في الخارج والطبقات العليا في

الداخل يفرز المهادن للاستعمار ، الذي يستسلم أمام الطبقات العليا ويسير في ركابها . وبعبارة أخرى فإن كل مظاهر الاختلاف بين عبدالناصر والسادات لا تتعارض مع كون الثاني استمرارا للأول ونتيجة طبيعية له . هذه حقيقة ينبغي أن نتنبه اليها جيدا: إذ أن من يسمع أحدا يتحدث عن وجود استمرارية بين عبدالناصر والسادات ، يتصور أنه يقصد وجود تشابه بين العهدين فقط ، ولكن حقيقة الأمر أن هناك استمرارية مع التضاد : أعني أن يكون الحاكم المهادن والمستسلم هو الامتداد الطبيعي للحاكم القوي المتشدد ، على الرغم من كونه نقيضا له ، بل « بسبب » كونه نقيضا له .

هذا هو التفسير الذي أعتقد أنه هو وحده القادر على الاجابة عن ذلك السؤال المحرج ، المحير ، الذي طرحناه من قبل ، وأعني به : كيف يمكن أن يختار الحاكم الوطني ، بنفسه ، خليفة غير وطني ، يأتمنه من بعده على أمته وهي تمر بأخطر مراحل حياتها ، وتسعى بمشقة شديدة الى التخلص من برائن عدوان جاثم على صدرها ؟ فلنقل إن هذا ، على الأقل ، هو اجتهادي ، ومن حق أي شخص أن يعترض عليّ ، ولكنه سيكون ملزما بأن يقدم تفسيرا أفضل ، يعلل جوانب الظاهرة كلها . وكل ما آمله هو أن لا يبلغ به الاستخفاف بعقولنا حداً يجعله يكرر شيئا مما قاله هيكل في هذا الموضوع . .

وسواء أكان التفسير الذي أقدمه مقبولا أم غير مقبول ،

فليتذكر القارىء دائما أن الهدف من هذا الحديث الطويل ، بل من كل ما قلته وسأقوله في هذه المقالات ، ليس إحراج هيكمل ، ولا انتقاد السادات أو عبدالناصر ، وإنما هو قبل كل شيء دعوة الى التفكير في ذلك الجو العام الذي عاش فيه كل من شارك في مأساة العرب خلال العقود الأخيرة .

ذلك الجو الذي يسمح للحاكم أن يختار خليفته بأكثر الطرق عشوائية ، وكأنه يغير لونا للملابسه ويستبدل به لونا آخر ، دون أن يستشير أحدا ، أو يحتكم الى شعب ، أو حتى أن يسأل صديقا مقربا . . .

ذلك الجو الذي يتم فيه للحاكم اختيار خليفته وهو على علم تام بسجله الطويل غير المشرف ، بعد أن تجمعت النذر التي توحى الى الحاكم بأن نهايته يمكن أن تحين . . .

ذلك الجو الذي يكون فيه معيار اختيار حاكم المستقبل هو أن « عليه الدور » وأنه مطيع ، مريح ، لا يجادل ولا يناقش ، أي بالاختصار ، بحث الحاكم الموجود عن راحته هو ، بدلا من تفكيره فيما يمكن أن يحدث لأمته في مستقبلها المحفوف بالأخطار ، لو تولى أمورها خلف من هذا النوع . . .

ذلك الجو الذي يختار فيه الحاكم خليفته ثم « ينسى » ، ويمتد به النسيان شهرا وراء الآخر ، في أخرج فترات التاريخ ، حتى يموت ناسيا . . .

وأخيرا ، ذلك الجو الذي يسمح لكاتب بأن يروي لنا هذا كله دون أن تطرف له عين ، ودون أن يرى فيه أي خطأ ، بل يحكي قصة التلاعب بمصير أمة وكأنها حكاية مسلية ، ويجد مع ذلك من يدافع عنه ، ويصفق له ، ويعامله كما لو كان شهيدا للحرية والديمقراطية .

إنها قصة حزينة ، وأشد جوانبها مدعاة للحزن هو أن كل الأطراف فيها مدانون ، وكلهم يسهمون في تلك الجريمة الكبرى التي لم ترتكب النظم اللاديمقراطية ما هو أفظع منها - جريمة هدم العقول .

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الانطباع الذي يقدمه الينا هيكل عن علاقته بالسادات هو أنه كان شديد القرب منه في السنوات الأولى من حكمه ، ثم اختلف معه بعد عام ١٩٧٤ ، في الوسائل أولا ، وبعد ذلك في الغايات والأهداف العامة ، وهو لا يدع لنا أي مجال للشك في التوحد بينه وبين السادات خلال تلك السنوات الأولى . « كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان » . . . « في السنوات الأربع الأولى كنت أقرب إليه من أي إنسان آخر » . « كانت هناك فتحة في علاقتنا توحدت فيها مقاصدنا . . فكلانا كان يطلب سلاما قائما على العدل في الشرق الأوسط ، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة ، والعالم العربي موحدا وقويا . » « أعتقد أنني لعبت دورا مؤثرا . . في المداولات والمشاورات السياسية التي أدت الى اختيار السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر » .

هذه الاعترافات ليست ، في الواقع مقصودة لذاتها ، بل إن الهدف منها هو أن يرد هيكل ، في الصفحات الأولى من كتابه ، على ذلك الاعتراض الذي يمكن أن يوجهه أكثر الناس سذاجة إلى هيكل حين يقرأ ما كتبه عن السادات في « خريف الغضب » : كيف تهاجم السادات إلى هذا الحد مع أنك كنت من أقوى دعائم حكمه ؟ وهكذا قرر هيكل ، بذكاء شديد ، أن ينزع مخالب القارئ المعترض منذ البداية ، ويقول له في الصفحات الأولى : نعم ، لقد كنت قريبا جدا منه ، ولكن طريقانا قد اختلفا فيما بعد لأسباب متعلقة بالمبادئ السياسية .

هذا اعتراف يؤدي ، إذا ما صدقه القارئ ، إلى استبعاد أية شبهة للتناقض بين مواقف هيكل القديمة والجديدة ، وإلى تجريد سلاح كل من يحاول الإشارة إلى الاندماج والانسجام التام الذي كان قائما بين هيكل السادات في وقت من الأوقات ، وإلى إعطاء هيكل كل الحق في هجومه المتأخر على السادات ، بعد أن كان من أقوى أنصاره .

ولكن ، هل يفلح هذا الدفاع حقا في تبرئة هيكل من تهمة التناقض ، والتقلب من عهد إلى عهد ؟ في رأيي الخاص أنه لا يفلح .

ذلك لأن هيكل قد ارتكب في كتابه خطأ قاتلا ، هو إشارات الطويلة إلى الجوانب الشديدة السلبية في تاريخ السادات قبل أن

يتولى الحكم . هذه الاشارات لو كانت قد صدرت عن كاتب محايد لم يرتبط بالسادات في أي وقت ارتباطا عضويا وثيقا ، لكانت مصدرا عظيم القيمة للمعلومات عن عادات وممارسات حاكم مثير للكثير من الجدل . ولكن صدورها عن هيكل بالذات يلحق به هو ذاته أفدح الأضرار . . ذلك لأننا لن نجد عندئذ عذرا نبرر به تعاطف هيكل مع السادات « كإنسان » في السنوات الأولى من حكمه ، أعني في وقت كانت فيه جميع عيوب السادات السابقة معروفة للجميع . فكيف تعاطف هيكل مع السادات كإنسان في الوقت الذي كان يعرف فيه عنه كمية هائلة من المعلومات تشينه إلى أبعد حد كإنسان ؟ إننا لو شئنا الدقة لقلنا ان ما قاله هيكل ، أخيرا ، عن طفولة السادات وشبابه والسنوات التي قضاها « في ظل عبد الناصر ، بكل ما اتسمت به من فساد ورشاوي واتصال بجهات مريبة وانتفاع من أثرياء العرب - كل ذلك لا يدين هيكل في تعاطفه بعد ذلك مع السادات فحسب ، بل يدين عبد الناصر في قبوله شخصا كهذا ضمن المسؤولين في حكمه ، ثم وقوع اختياره عليه هو بالذات ليكون خليفة له ، والأهم من ذلك أن هذه المعلومات تدين أسلوب الحكم الذي يسمح لشخص يتسم بكل هذه العيوب بأن يصمد طوال كافة تقلبات العهد ، ثم يصعد إلى المرتبة العليا التي لا ينازعه فيها أحد . هذه كلها أمور واضحة ، لا تشفع فيها كلمات هيكل التي حاول بها أن يخفف مرارة الحقيقة في الصفحات الأولى من كتابه .

ولكن يبدو أن هيكلم لم يكن مرتاحا كل الارتياح إلى العذر الذي قدمه لقراءه ، ولم يكن مطمئنا كل الاطمئنان الى أنهم سيقنعون به . وهكذا نراه بعد قليل يقدم عذرا آخر فيقول : « وأظن أيضا أنني لم أكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، لكنني تصورت أن أعباء المنصب ووقر المسؤولية سوف تقوي كل العناصر الايجابية في شخصيته ، وسوف تساعد في التغلب على جوانب الضعف فيها . كان في ذهني باستمرار نموذج الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، الذي خلف فرانكلين روزفلت في مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد بدا ترومان في ذلك الوقت ، وبعد روزفلت ، شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن تقود الصراع الانساني الكبير في الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة والمحقة . ولكن ترومان ، أمام تحدي التجربة العملية ، نما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين في العصر الحديث . ولقد تصورت أن نفس الشيء يمكن أن يحدث للسادات » .

هنا يواصل هيكلم أسلوبه في مخاطبة الناس كما لو كانت عقولهم ملغية . فهو الآن يقول ، مبررا تقلباته : نعم ، لقد كنت أعرف أن في الرجل عيوباً ، ولكنني تصورت أن الحكم سيصلحه ! ما الذي يرغمك على هذا التصور يا سيد هيكلم ؟ ألم يخطر ببالك الاحتمال الآخر ، والأوضح ، وهو أن الحكم والقوة ستزيده فساداً ؟ وهل كانت مجموعة العيوب التي

أحصيتها في مختلف مراحل حياته ، من النوع الذي يمكن أن ينصلح تحت وطأة مسؤوليات الحكم ؟ انك تتحدث عن تقوية العناصر الايجابية في شخصيته ، والتغلب على عناصرها السلبية . ولكننا لم نسمع منك ، طوال الفصول التي تحدثت فيها عن السادات قبل توليه الحكم ، ذكرا لأي عنصر إيجابي ، فعلى أي شيء إذن كنت تعلق آمالك ؟

أما قصة روزفلت وترومان ، فهي أقبح عذر يمكن تصوره لأقبح ذنب . ذلك لأن أحدا لم يقل عن هاري ترومان إنه أصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين في العصر الحديث . فتاريخ ترومان يرتبط في الأذهان بقرار بشع استهل به حكمه ، وما زالت الإنسانية تلعنه من أجله حتى اليوم ، وهو قرار إلقاء القنبلتين الذريتين في هيروشيما ونجازاكي - وهما القنبلتان الذريتان الوحيدتان اللتان استخدمتا ضد البشر حتى اليوم . فهل هذا ما يقصده هيكل بعبارة « قيادة الصراع الإنساني الكبير في الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة » ؟ أما في أذهاننا نحن العرب ، فإن اسم ترومان يرتبط بتاريخ أسود ستلعه من أجله كل أجيالنا التالية : هو القيام بأهم دور في قيام دولة اسرائيل ، والاعتراف بها بعد خمس دقائق من إعلان قيامها ، والضغط على أكبر عدد ممكن من دول العالم من أجل الموافقة على قرار الأمم المتحدة بشأنها . فهل هذه هي الأسباب التي أصبح من أجلها ترومان ، في نظر هيكل ، واحدا من أعظم رؤساء أمريكا في العصر

الحديث ؟ أستطيع ، من وجهة نظري الخاصة ، أن أعطي هيكمل كل الحق في تشبيهه لأنور السادات بترومان ، إذا كان المقياس الذي نتبعه هو مقدار الخدمات التي يؤديها الرئيس لدولة اسرائيل !

إنها ، إذن ، حجج لا تقنع أحدا ، تلك التي ساقها هيكمل لتبرير ارتباطه الوثيق بالسادات في السنوات الأولى من حكمه ، ولم يكن اختياره أن يستخدم حججا متهافنة كهذه إلا حلقة أخرى في سلسلة التعتيم الفكري الذي يلجأ إليه أولئك الذين نشأوا ، وازدهروا ، وترعرعوا ، في ظل نظم حكم متسلطة ، لا ديمقراطية ، تستخف بعقول الناس وتستهن بذكائهم .
وحقيقة الأمر أن قصة ارتباط هيكمل بالسادات أطول وأعقد من ذلك بكثير . . .

* * *

هناك شواهد كثيرة وقوية على أن حكم عبد الناصر كان يضم ، في سنواته الأخيرة على الأقل ، « أجنحة » متنافسة ومتعارضة . كان هناك الجناح العسكري الممسك بقوة الجيش ، والملتصق بالمشير عامر (شمس بدران وقادة الأسلحة المختلفة قبل ١٩٦٧) . وكان هناك الجناح التنفيذي الملتصق بعبد الناصر في عملية الحكم (سامي شرف ، شعراوي جمعة ، محمد فايق ،

الخ . . .) وكان يقود هذا الجناح علي صبري . وكان هناك الجناح الهاديء ، المتربص ، الذي يحتفظ بعلاقاته بعبد الناصر بحذر شديد ، دون التورط في ممارسات تشير المتاعب : أنور السادات ، محمود فوزي ، سيد مرعي ، حافظ بدوي . وأكاد أجزم بأن هيكل كان ينتمي إلى هذا الجناح الأخير . فالشواهد قوية على أن هيكل كان من مجموعة أنور السادات قبل أن يتولى هذا الأخير الحكم بوقت غير قصير .

ويكفي ، كمثال واحد للتدليل على ذلك ، أن أستشهد بما قاله هيكل نفسه في مقاله الذي أشرت إليه في موضع سابق : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » . فهو في هذا المقال يروي قصة اعتقال عبد الناصر لأحد المثقفين المرتبطين بهيكل في جريدة « الأهرام » ، وكيف غضب هيكل ولازم بيته أياما دون أن يفتح عبد الناصر في الموضوع . والذي يهمنا في هذا أن أنور السادات كان هو الذي اتصل به قائلا : « ما هذا الذي تفعله ؟ إنك تترك الجو هنا لكل من يريد أن يستثير ويحرض » ثم قال : « اتصل به (بعبد الناصر) فورا وتحدث معه بنفسك ، ولا تترك المجال مكشوفاً لآخرين » . وبعد يومين عاود السادات الاتصال بهيكل قائلا : « يظهر أنك جننت . لماذا تترك الأمر بينك وبينه لكل من يريد أن يتبرع بكلمة ؟ » .

هنا يظهر بوضوح أنه كانت هناك مجموعتان ، واحدة يمكن أن تحرض عبد الناصر ضد هيكل ، وأخرى حريصة على سلامة

هيكـل ضد المجموعة الأخرى ، وفيها أنور السادات . ولا شك أن تطوع السادات بكل هذه النصائح إلى هيكـل يدل على أنهما كانا ينتميان إلى معسكر أو جناح واحد .

وربما وصف البعض هاتين المجموعتين وصفا أيديولوجيا ، فقال ان الأولى (علي صبري) يسارية ، والثانية (السادات) يمينية ، ولكن هذا في رأيي وصف لا يصدق إلا في حدود ضيقة . فقد تعاملت المجموعة الأولى بالفعل مع السوفييت في وقت كانت مصالحهم فيه تقتضي ذلك ، وأنا أشك جدا في أن يكون هناك أي أساس أيديولوجي حقيقي لهذا التعامل . أما مجموعة السادات فكان موقفها أوضح ، هو الميل الشديد إلى الجانب الأمريكي ، وإن كان هيكـل ، داخل هذه المجموعة ، أشد حذرا وأقل انكشافا بكثير من الآخرين .

وعلى أية حال فإن الأحداث التالية أثبتت صحة هذا التقسيم إلى جناحين حول عبد الناصر : إذ أن الخلافات بين الجناحين خرجت إلى العلن بعد موت عبد الناصر ، وكان فرسان المجموعة المحيطة بالسادات هم هيكـل ومحمود فوزي (الذي عينه السادات رئيسا للوزراء) ، وبذل هيكـل ، كما سنرى فيما بعد ، مجهودا خارقا للعادة لكي يفضح المجموعة الأخرى ويبرر إلقاء السادات بأهم أعضائها في السجون ، ولكي يثبت أن طريق السادات هو الطريق الصحيح .

وربما تساءل البعض : ما الذي كان يدعو عبد الناصر إلى أن يتعامل مع مجموعتين متنافرتين إلى هذا الحد ؟ (لاحظ أن مجموعة عبد الحكيم عامر قد تمت تصفيتها نهائيا بعد هزيمة ١٩٦٧) . وهذا سؤال يصعب الإجابة عليه ، إذ أن ما يبدو للوهلة الأولى ، ولأصحاب النوايا الطيبة ، هو أن التعامل مع مجموعتين متنافرتين يعطل وضع البرامج وتنفيذ السياسات التي كان يضعها عبد الناصر . وعلى سبيل المثال ، فإن الإجراءات الاشتراكية لن تستفيد من وجود أشخاص مثل السادات ومرعي وعثمان أحمد عثمان في قلب النظام ، ولا جدال في أن هؤلاء لم يقبلوا تلك الإجراءات إلا خوفا من عبد الناصر أو مسايرة له . وهكذا يظل السؤال قائما ، والرد الوحيد الذي أتصوره هو أن نظام الحكم كان ، بسبب عدم ديمقراطيته ، مرتكزا على القوة ، والقوة تحتاج دائما إلى توازنات . ومن المفيد ، من أجل استقرار النظام ، أن تكون هناك مجموعتان تنشغل كل منهما بالأخرى ، ويمكن ضرب إحداهما بالأخرى إذا ما تمادت في ممارسة قوتها . . . أما تأثير ذلك على مصر ، فعلمه عند الله !

* * *

ثم جاء السادات إلى الحكم ، وأصبحت الفرصة متاحة لجناحه لكي ييسط سلطته ونفوذه . وكان أول ما فعله هيكل هو أنه قام بدور رئيسي في تأكيد أحقية السادات بخلافة عبد الناصر على أساس « الشرعية » ، أي لأن عبد الناصر هو الذي اختاره

نائباً . وهكذا يقول في كتابه الأخير : « أدركنا الحملة الانتخابية للسادات في الاستفتاء على رئاسة الجمهورية (وكان المشرف عليها هو هيكل شخصياً) على أساس أنه كان الرجل الذي اختاره جمال عبد الناصر لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته . »

هل ترى الخدعة أيها القارئ العزيز ؟ ألا تشعر بأن عقلك قد أهين عندما تقرأ هذا الكلام ؟ لقد أراد هيكل أن يقنعنا من قبل بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد صدفة ، ولم يكن مقدراً له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وكان يرجع فقط إلى أن السادات « عليه الدور » ، وكان في ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ولكنه انشغل ، ولم يكن بقاء السادات نائباً حتى موت عبد الناصر إلا ضربة حظ جعلت الرئيس « ينسى » هذا الموضوع . حسناً ، لنصدق هذا كله . ولكن إذا صح أن هذا هو رأي هيكل في الموضوع ، فكيف سمح لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كان اختياراً سليماً ، وحقيقياً ، وتعبيراً عن رغبته الأصلية والدائمة ؟ إن هيكل نفسه - تبعاً لما قال - لم يكن مقتنعاً بهذا الاختيار العارض ، بل يبدو أنه ناقش عبد الناصر فيه ، فكيف يدير هيكل حملته على أساس أن الاختيار كان أصيلاً ؟ إن المسألة لا تحتل إلا أحد أمرين : فإما أن عبد الناصر كان قد اختار السادات لأنه كان مقتنعاً به ، وعندئذ تكون قصة « الدور »

و« النسيان » قصة ملفقة (ويكون عبد الناصر ذاته قد أعطى شعبه أسوأ « هدية » لمستقبل أيامه) ، وإما أن عبد الناصر كان قد اختاره بصورة مؤقتة ، ولم يكن ينوي أن يحتفظ به إلى النهاية ، وفاجأه الموت قبل أن يعدل عن رأيه ، وعندئذ يكون هيكل قد أدار حملة السادات الانتخابية على أساس عملية غش كبرى موجهة ضد الجماهير البريئة الذاهبة إلى صناديق الاستفتاء .

* * *

إذن فقد أصبح السادات ، بفضل مؤازرة هيكل وتعاونه معه قلبا وقالبا ، رئيسا للجمهورية . ولكن الأمر لم يستتب له على الفور ، فقد كان هناك الجناح الآخر ، الذي لم يكن مقتنعا بالسادات إلا بوصفه رئيسا انتقاليا ، ولم يسكت عن ترشيحه إلا لكي يتم عبور تلك اللحظات الحرجة التي أعقبت وفاة جمال عبد الناصر بسلام . وهكذا بدأت الاختلافات والمناوشات والانقسامات ، وكان الخلاف محتدما على أشده بين الجناح الناصري التنفيذي ، الذي كان أكثر عددا وأقوى رسوخا بكثير ، وبين الجناح الساداتي ، الذي كان يتمتع بميزة هامة ، هي كرسي رئاسة الجمهورية (وهو أمر له أهميته القصوى في نظام حكم غير ديمقراطي) ، وكذلك دهاء أقطابه وحنكتهم السياسية ، وعلى رأسهم هيكل .

المهم أن الصراع أسفر في النهاية عن انتصار ساحق ،
وشديد السهولة ، للجناح الساداتي على الجناح الآخر الذي
كان ، رغم سيطرته على أهم مرافق الدولة ومعظم التنظيمات
السياسية ، يدير دفة الصراع بقصور شديد . وبعد أن حسمت
نتيجة الصراع لصالح السادات فيما عُرف بحركة التصحيح (وفيما
بعد : ثورة التصحيح) في ١٥ مايو ١٩٧١ ، أي بعد ستة أشهر
من اعتلاء السادات الحكم ، أصبح الطريق مأمونا ، وكتب
هيكل مسجلا موقفه من هذا كله « بصراحة » . ومن المهم جدا
أن نتابع هذا الذي كتبه هيكل في تلك الفترة لعدة أسباب :

أولا : أن هذه الفترة تمثل منعطفًا حاسمًا في السياسة
المصرية ، تحدت فيه بالتدريج معالم الخط المميز لحكم
السادات في السبعينات وأوائل الثمانينات .

ثانيا : أن كتابات هيكل ، بما تضمنته من حماسة شديدة
للسادات ، تكشف عن العلاقة العضوية الوثيقة بين الرجلين ،
وتؤكد أن هذه العلاقة كانت قائمة منذ عهد عبد الناصر ،
وخرجت إلى العلن عندما تخلص السادات من منافسيه .

ثالثا : أن هذا التمجيد الذي أغدقه هيكل على السادات ،
حدث في وقت كان يعلم فيه من هو السادات ، وكان يعرف
تاريخه الذي رواه في « خريف الغضب » ، والذي كان يمتد على
مدى ثلاثين عاما ، من أوائل الأربعينات حتى أواخر
الستينات .

رابعاً : أن هذه الكتابات تتحدث في كثير من الأحيان عن وقائع رويت فيما بعد في خريف الغضب ، ولكننا نجد الواقعة الواحدة تصطبغ بلونين مختلفين كل الاختلاف : ساطع براق في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، وأوسود قاتم في ١٩٨٣ ، والفرق بين الاثنين ، بالطبع ، يكشف عن مستوى القيم الأخلاقية لدى أنصار مدرسة معينة في الصحافة والسياسة ، لا تجد في ارتداء الأقنعة وخلعها ، تبعاً للعهد ووفقاً للمصالح ، أي عيب أو نقیصة .

خامساً : أن هذه الكتابات تثير سؤالاً على جانب كبير من الأهمية ، هو : إلى أي مدى كان هيكل ناصرياً ؟

● يصف هيكل ، في أول مقال يكتبه بعد أحداث ١٥ مايو ، أيام الأزمة فيقول : « لقد عشت لحظة التفجير ، ومن حسن الحظ أن التدمير لم يقع ، وتلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية في لحظات بالغة الصعوبة والخطر . »

● « لقد كنت أول من دعاه الرئيس أنور السادات إلى بيته صباح الأربعاء ١٢ مايو ولم يستدعني بالتليفون ، كما تعود أن يفعل ، ولكنه بعث إليّ بكريمته تدق باب بيتي في الصباح الباكر . . . » (تأمل مدى التعاون والتفاهم بين الرجلين في لحظة التحول) .

● يكتب هيكل على لسان السادات ، في حملة الدعاية الهائلة التي شنّها لدعم مركزه بعد الحركة : « إن لديّ الشجاعة أن أقف أمام الملأ وأقول بأعلى صوت إنني لا أريد أن أكون رئيساً لهذا البلد وفق شروط يملئها من يدعون أنهم ولاية الأمر عليّ . إنني أعمل بضميري ولن أعمل بإملاء أحد عليّ . وأقوى سلاح أملكه في يدي أنني لا أتمسك بأن أظل رئيساً » .

● « كان أنور السادات في هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلاً بأكثر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد . كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة ، مزيجاً مدهشاً من الهدوء والحسم . »

● « كانت لحظة حاسمة في تاريخ مصر . . . وكانت لحظة رائعة نبيلة . »^(١)

● يتحدث هيكل عن انتصار ذلك الذي قال عنه فيما بعد إنه تولى الحكم بصدفة تاريخية غير مقصودة ، فيقول : « عشنا المحنة مرتين في السنوات الأخيرة ، ولولا عناية الله مع جمال عبد الناصر مرة (يقصد أيام تمرد عبد الحكيم عامر بعد الهزيمة) ، وعناية الله مع أنور السادات مرة ثانية - لسقطت مصر في أعماق الظلام والخوف . »

(١) الاقتباسات السابقة كلها من مقال هيكل الأسبوعي « بصراحة » ، بعنوان : ماذا أقول ؟ - الأهرام ١٩٧١/٥/٢١ .

● يصف هيكل الحوار الذي كان يدور بين السادات وخصومه فيقول : « كان أنور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين . »

● « كان أنور السادات يتصرف على سجيته . . سجية مصري أصيل مفتوح القلب والعقل معا . »

● « حدثت المعجزة في المرة الثانية التي استفقنا الآن من هولها بسبب أن مواطننا تحرك ضميره فذهب بأ شرطته في الليل إلى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه ، ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل في موقع المسؤولية الأولى تصرف بجرأة نادرة في لحظات خطر محيق . »^(٢)

● « قال الرئيس السادات بلهجته الودودة : محمد . . . ودار بيننا نقاش طويل كان فيه الرئيس كريما وحليما كعاداته . »^(٣)

● « هذه المرحلة هي التي ستجعل من أنور السادات - بإذن الله - قائدا تاريخيا لشعبه وأمته ، لأن القيادة التاريخية مرتبة أعلى بكثير من الرئاسة مهما كان وصفها . »^(٤)

● « لقد أثبت أنور السادات ذلك عمليا في معركته ضد مراكز

(٢) مقال : « السؤال الأول والأكبر » - الأهرام ٢٨ / ٥ / ٧١ (وجميع الاقتباسات السابقة من نفس المقال) .

(٣) « كيسنجر وأنا » - ٧٢ / ١٢ / ٢٩ .

(٤) « الخطوة الضرورية » - ٧١ / ١١ / ٢٦ .

القوى . كان أمامها أعزل من أي سلاح . . . وكانوا أمامه
ومعهم كل أدوات السلطة في مصر . وكنسهم من فوق
الأرض كنسا لأن الجماهير كانت معه . «^(٥)

● ويصل الأمر بهيكل إلى حد أن يمتدح في السادات نفس
المظاهر التي هاجمه من أجلها فيما بعد في « خريف الغضب » .
فنشاط السادات السياسي في شبابه ، الذي وصف في
« الخريف » بأنه عمالة للقصر ، وفقره العائلي الذي وصف بأنه
سبب عقدته النفسية وعلة تكالبه على مظاهر الترف ، كان لها
وصف مختلف تماما في عام ١٩٧٢ :

« كان أنور السادات أكثر ما يكون أمانة حين قال : إنني
أفهم ما يعانیه الشباب ، وأنا الذي خرجت من طين مصر إلى
التمرد ، وإلى السجن وإلى التشرد ، ثم إلى الثورة » . ويواصل
هيكل كلامه قائلا : « يقول أنور السادات نفسه : كنت دائما
من قاع السلم الاجتماعي في مصر . من قلب الطين ، ولقد
تعلمت بمعجزة ، وعندما أتممت تعليمي وجدت أن العمل
الوطني أهم بالنسبة لي من أي وظيفة مع حاجتي الشديدة إلى
مرتبي . . . وجدت نفسي في السجن ، متهما بالتعاون مع
الألمان ، وكان ذلك صحيحا ، ولكن تعاوني مع الألمان لم يكن
من أجل هتلر وإنما من أجل مصر . »^(٦)

(٥) « علامات على طريق طويل » - ٧٢/٢/١١ .

(٦) « قضية هذا الجيل » - ٧٢/١/٢٨ .

أما استراحة القناطر ، التي صارت فيما بعد ، مع غيرها من الاستراحات ، نموذجاً للترف الذي يتمتع به السادات على حساب الشعب ، فقد قال عنها هيكل : « كنت على موعد مع الرئيس السادات في استراحة القناطر التي يفضل الإقامة فيها كلما استطاع ، لأنها تجعله بقرب الريف الذي يعتبره مصر الأصلية ومصر الحقيقية . »^(٧)

إن هذه الاقتباسات تغني عن كل تعليق . وحسبنا أن نقول إن الصفات المعنوية والأخلاقية للشخص الواحد لا يمكن أن تتغير في مرحلة واحدة من حياته . ولكننا عند هيكل نجد أنفسنا إزاء سادتين ، لا سادات واحد : أحدهما كان بطلا عندما كان هيكل راضيا عنه وشريكا له ، والآخر كان منحرفا عندما حل « خريف الغضب » . ويظل السؤال الأهم ، بعد هذا كله ، هو : إذا كان لدينا « ساداتان » ، فكم هيكل هناك ؟

في الحديث السابق كله كانت هناك إشارات كثيرة إلى الصراع بين جناحين في ظل عبد الناصر ، والأمر الملفت للنظر هو أن كلا من الجناحين كان يؤكد أنه هو الذي يمثل تراث عبد الناصر على حقيقته . ولما كان هيكل قد انتمى ، بقلبه وقالبه ، إلى الجناح الساداتي في تلك الفترة ، فقد كان من المحتم أن يؤكد ، في كتاباته ، أن السادات وريث الناصرية الأصلية ، وأنه هو

(٧) « على هامش التطورات الأخيرة » - ٢٨ / ٧ / ٧٢ .

الذي يعبر عن مبادئها خير تعبير .

فهو يقول عن حركة التصحيح : « إننا لسنا أمام بداية جديدة ، وإنما نحن على طريق الاستمرار ، وإلا وجدنا أنفسنا نقع في شرك ينصبه أعداء الثورة السياسية والثورة الاجتماعية . »^(٨) ويكتب هيكل عن حوار دار بينه وبين السادات حول الناصرية فيقول : « قال أنور السادات بالأمانة كلها : إنني لا أرى طريقا آخر غير طريق عبد الناصر . »^(٩) ويدافع هيكل عن ناصرية السادات الأصيلة فيقول : « عبد الناصر والناصرية لا يمكن رؤيتهما من خلال ثلاثة أو أربعة أساءوا إليه وإليها وإلى أنفسهم ، وإنما يُرى وتُرى من خلال كثيرين أحسنوا . . . أنور السادات وكان هو الذي اختاره واستخلفه من بعده ، ومع أنور السادات مئات من معاونين والمساعدين يقودون العمل المصري في كل الميادين . »^(١٠) ويدعو شعب عبد الناصر إلى الوقوف وراء السادات فيقول : « إن قيادة أنور السادات ، على طريق جمال عبد الناصر ، هي الممثل الشرعي لحركة الثورة الوطنية والقومية في المرحلة الراهنة . وظني أن هذه القيادة وتأييدها إلى آخر المدى هو العاصم الحقيقي في هذه الظروف من جاهلية اليمين المتخلف وجهل اليسار

(٨) « ماذا أقول ؟ » - ٧١ / ٥ / ٢١ .

(٩) « حديث عن تجربة » - ٧٢ / ١ / ١٤ .

(١٠) نفس المقال .

ولكن هيكل في الوقت ذاته كان يمهد للتغيير . وعندما كتب في نوفمبر ١٩٧٠ مقالا بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أثار ضجة كبرى لدى الفريق الآخر ، الذي كان يؤكد تمسكه بالناصرية كما وضع معالمها عبد الناصر نفسه . ولقد دار خلاف طويل بين الفريقين حول أسباب الصراع بينهما ، وهو خلاف لا يعنينا هنا أن ندخل في تفاصيله أو نصدر حكما على طرفيه ، بل إن ما يعنينا هو أن هيكل ، الذي أعلن نفسه حاميا لتراث الناصرية ، كان في تلك الفترة يقف من الناصرية موقفا يدعو إلى التساؤل عن طبيعة انتمائه إليها .

فهو قد حارب الجناح « المتطرف » ، إذا جاز هذا التعبير ، وساند الجناح المعتدل ، إذا جاز التعبير أيضا ، ثم عاد في كتابه الأخير فهاجم الجناح المعتدل أيضا . وهكذا تظل الناصرية عنده هي ما يرتبط بشخص عبد الناصر فقط ، لا بأي تنظيم معين انبثق عنها .

وعندما حارب الجناح المتطرف ، هاجمه على أسس متعددة : فهو يصف أقطاب هذا الجناح بالجهل الشديد ، إلى حد أنه يدون في أحد مقالاته محتويات شريط لجلسات تحضير أرواح حضرها هؤلاء الأقطاب ، مع أستاذ جامعي اتخذه وسيطا ،

(١١) « علامات على طريق طويل » - ٧٢/٢/١١ .

وأخذوا فيها يسألون « الروح » عن أخطر الأمور المتعلقة بتخطيط حركتهم وتوقيتها^(١١) ، وإذا صحت القصة (وأنا شخصيا غير مقتنع بها) فإنها تلقي ظللا من الشك على العهد الناصري كله ، الذي كان هؤلاء يشغلون فيه مراكز القوة الحقيقية . وبالطبع لا يرى هيكل ، كعاداته ، أن ما يقوله عن هؤلاء هو قبل كل شيء طعن في عبد الناصر ، الذي أسلم مقاليد بلده لأشخاص على هذا المستوى ، بل هو طعن في هيكل بدوره ، الذي رضى بأن يكون فيلسوفا لعهد يضم في داخله مثل هذه النوعيات .

أما تأييده للجناح المعتدل ، فكانت عواقبه وخيمة : إذ أن هذا الجناح هو الذي تولى ، في السبعينات ، القضاء على كل المقومات الرئيسية للناصرية ، كما حددها هيكل نفسه : أعني الحياذ الإيجابي والاستقلال الوطني والتصدي للأمبريالية والصهيونية والنمو المستقل في ظل اقتصاد مخطط . أي أن نفس المجموعة التي اختار هيكل الوقوف في صفها ، كانت هي التي تولت تصفية الناصرية ، حسب مفهومه لها .

وحين عاد هيكل بذاكرته إلى الناصرية بعد عبد الناصر ، وجد التنظيمات الناصرية ممكنة وعاجزة عن العمل السري أو العلني ، ومفتقرة إلى القيادات القادرة .^(١٢) ولكن ناصريا

(١٢) « تحصيل الأرواح » - ٧١/٦/٤ .

(١٣) انظر فصل « النزول إلى العمل السري » في « خريف الغضب » .

معروفا هو « فريد عبد الكريم » يؤكد تماسك الناصرية وثبات مبادئها ، وينفي الفكرة القائلة إنها تقوم على شخصية الزعيم ، مع اعترافه بالدور الأساسي الذي تلعبه هذه الشخصية . أما « عبد الهادي ناصف » ، وهو بدوره ناصري مخلص ، ومن النماذج النقية لهذا الاتجاه ، فقد كانت معاركه مع هيكل قديمة العهد ، منذ أن نشر هيكل مقال « تحية للرجال » الذي تضمن مبالغة شديدة في تصوير صعوبة عبور قناة السويس ، ورد عليه « ناصف » بهجوم مضاد عنيف على اتجاهات هيكل التي رأى فيها ابتعادا عن الناصرية . وما زالت المعركة بين الاثنين قائمة . (١٤)

المهم في الأمر أن كثيرا من الناصريين المتمسكين بمبادئهم يتشككون في ناصرية هيكل ، لأسباب عدة :

فهو قد هاجم أهم رموز الناصرية بمجرد موت عبد الناصر ، بحيث يمكن أن ينظر إلى هجوم هيكل عليهم بوصفه هجوما على شيء في صميم الناصرية ذاتها . . وهو قد أبدى تأييدا لا شك فيه للتحويلات الساداتية في السياسة الداخلية والخارجية ، خلال الفترة الحاسمة التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، وهي التحويلات التي سنرى فيما بعد أنها تنطوي - من وجهة نظر معينة - على بذرة الاستسلام لاسرائيل وفتح الأبواب لأمريكا وتخريب الاقتصاد

(١٤) انظر لعبد الهادي ناصف مقال : « من التفسير التأمري إلى المحاكمة على الفكر والنية » .
جريدة الأهالي - ٢٢ / ١٢ / ٨٢

الوطني باسم الانفتاح . والأهم من ذلك أنه كان من الدعائم الكبرى لحكم السادات ، في الفترة الحرجة الأولى ، على الرغم من كل ما يعرفه عن الاختلاف الهائل بين السادات وعبد الناصر في الشخصية والفكر والاتجاه .

وهكذا يتبرأ كثير من الناصريين المتمسكين بعقيدتهم من هيكل ، بل ويناصبونه العداء . وعندما يستعرض المرء تطورات مواقف هيكل ، منذ بدء ارتباطه بعبد الناصر حتى اعتقاله القصير الأمد في عهد السادات ، لا يملك الا أن يتساءل : هل كان هناك أي أساس حقيقي لتلك العلاقة التي ارتبط فيها اسم هيكل بالناصرية ، باستثناء ولائه لشخص عبد الناصر - ذلك الولاء الذي كان في الوقت ذاته المصدر الأول لشهرته ونفوذه ؟ سؤال أترك الاجابة عنه للناصريين أنفسهم . أما عن نفسي فإني كلما صادفت حالة من تلك الحالات التي تسيء فيها كتابات هيكل إلى عبد الناصر أبلغ الإساءة ، دون قصد منه ، فإني لا أملك إلا أن أدعولعبد الناصر بأن يرحمه الله من أصدقائه ، أما أعداؤه فقد كان هو ذاته كفيلا بهم ! .

الفصل الثامن الجذور

الفصل الثامن

الـجـذـور

ليغفر لي الاستاذ هيكل استعارتي عنوان هذه الحلقة من كتابه ، وربما كان عذري أنه هو بدوره قد استعارها من كتاب « اليكس هيلي » المشهور ، وكان موفقا في استعارتها ، لا لأن الحديث فيها كان يدور حول الأصول العائلية الأولى للسادات فحسب ، بل لأن هذه الأصول العائلية كانت ، في حالة السادات ، مثلما كانت في حالة بطل أليكس هيلي ، زنجية افريقية ، كما يحرص هيكل على أن يؤكد .

ولكن الحديث عن هذه الأصول العائلية ، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم لونية ، ليس في رأيي هو « الجذور » الحقيقية لمأساة حكم السادات ، بل : انني أود هنا أن أتحدث عن « جذور » من نوع آخر ، أهم وأعمق بكثير ، كانت تكمن فيها بذرة التطورات التالية لسياسة السادات ، وأسلوب معالجته للقضايا القومية والوطنية والداخلية . هذه « الجذور » التي حددت ، منذ سنوات حكمه الأولى ، اتجاهاته التالية كلها ، هي التي تستحق بالفعل أن تدرس بعمق .

يمثل عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ تحولا حاسما في السياسة المصرية . كان عبدالناصر قد توفي في العام السابق وترك أمورا كثيرة معلقة ، تحتل السير في أكثر من اتجاه ، وعلى رأسها مبادرة روجرز ، التي كان قد أعلن قبوله لها قبل وفاته بشهور قلائل ، والاستعداد العسكري لمعركة العبور ، الذي كان قد بلغ في ذلك الحين درجة عالية من الاتقان . وعندما تولى السادات الحكم في أكتوبر ١٩٧٠ ، كان من الطبيعي أن تظل النغمة السائدة ، لفترة ما ، هي السير على طريق عبدالناصر . فلم يكن من الممكن أن يسير الاعلام والدعاية للرئيس الجديد في أي طريق مخالف ، لأن الاعلان عن استمرار النهج السابق هو أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف التي يختفي فيها رئيس قوي ذو شهرة واسعة وماض طويل ، ويحل محله خلف لا يزال ، الى حد بعيد ، مجهولا ، ولا يزال الناس يشعرون بأن كرسي الحكم كبير عليه .

كانت فكرة « السير على درب عبدالناصر » هي إذن الوحيدة الممكنة في تلك الفترة الأولى ، مهما كان الاتجاه الحقيقي الذي تسير فيه نوايا الرئيس الجديد وخططه . ولكن بعد حركة مايو ١٩٧١ ، التي تخلص فيها السادات بضربة واحدة من خصومه الذين شكلوا « جناحا آخر » مناوئا له ، طوال الشهور السبعة الأولى من حكمه ، بعد هذه الحركة أصبح للرئيس الجديد من حرية الحركة ما يسمح له بأن يبدأ تطبيق أفكاره الخاصة . ولكن

الحكمة كانت تقتضي أن يسير كل شيء بتدرج شديد ، بحيث يبدو في أول الأمر أن كل شيء سيظل على حاله ، ثم تطرح الأفكار الجديدة بصورة عابرة في البداية ، لمجرد التمهيد ، وبعد ذلك يبدأ الالحاح تدريجيا على هذه الأفكار الجديدة ، ومن الممكن أن تظل هذه المعاشة مع الأفكار القديمة وقتا ما ، ولكن هذه الأخيرة تدبل شيئا فشيئا ، الى أن يتبلور الاتجاه الجديد ، ويحتل الميدان وحده ، في نهاية الأمر . كل شيء إذن ينبغي أن يتم ببطء ، وحذر ، وتدرج ، ولكن الهدف واضح ، ومحدد مقدما ، وهو تحويل الاتجاه السياسي في مصر تحويلا جذريا . ولا بأس من الاستشهاد ، في عملية التحويل هذه ، بعبد الناصر على الدوام ، وخاصة إذا كان ذلك على صورة حديث خاص أو أقوال أدلى بها لهذا الشخص أو ذاك ، مادام الموتى لا يستطيعون التكذيب . فالاستعانة بعبد الناصر في عملية التحول ضد سياسة عبد الناصر ، هي أسلم الوسائل وأضمنها لتحقيق التغيير المطلوب بهدوء وسلاسة ، بحيث لا يشعر الناس به إلا بعد أن يكون قد تم .

في هذا التحول المخطط ، المرسوم بذكاء وبراعة ، كان من الطبيعي أن يكون للجهاز الاعلامي ، الذي يتربع على قمته هيكل ، دور أساسي : إذ أن الاعلام هو الذي يهئ عقول الناس للتغيير ، وهو الذي يمهّد الطريق للسياسات المرسومة . ولوتتبع المرء خط السير الذي سلكته كتابات هيكل في هذه الفترة

لوجد المخطط المرسوم للتحويل ينفذ فيها ببراءة هائلة ، ويتدرج بطيء ولكنه محدد الاتجاه ، ولتبين له أن عملية تهيئة الأذهان للتغيير قد القيت على عاتق هيكل ، الذي اضطلع بها بكفاءة عالية .

فما هو هذا التغيير الذي كان يراد في السياسة المصرية ؟ كانت هذه السياسة ، في السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ وموت عبدالناصر في سبتمبر ١٩٧٠ ، تتلخص في الاعتماد المتزايد على المساعدة السوفيتية ، اقتصاديا وعسكريا بوجه خاص ، ولم يكن هناك مفر ، في ظروف تلك الفترة ، من سلوك هذا السبيل . ذلك لأن أمريكا كانت ، قبل حرب ٦٧ وبعدها ، قد انحازت كلية لاسرائيل ، وكانت شحنات الأسلحة المرسلة اليها ، والتي زادت قوة على قوتها الأصلية . تستهدف منذ ذلك الحين ان تصبح اسرائيل متفوقة عسكريا على الدول العربية مجتمعة . وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على الطرف المضاد في الصراع العالمي من أجل الحصول على أسلحة تعوّض التفوق الاسرائيلي . وهكذا خلقت ظروف الفترة نفسها ، والهدف الذي حددته السياسة المصرية لنفسها فيها ، وهو إزالة آثار العدوان « خلقت وضعا يحتم مواجهة السلاح الأمريكي المتدفق على اسرائيل بسلاح سوفيتي ، دون أن يعني ذلك ، بأي حال ، انحياز مصر كلياً أو جزئياً الى المعسكر الشيوعي . ولذا شاع عندئذ استخدام تعبير « الصداقة » في وصف العلاقات المصرية السوفيتية ، وتعبير « الاتحاد السوفيتي

الصديق » ، وكان ذلك يقتضي في المقابل زيادة حدة اللهجة المعادية لأمريكا . ومع ذلك فإن السياسة الرسمية لم تغلق أبواب الاتصالات مع أمريكا ، بوصفها قوة عظمى ينبغي أن يعمل لها حساب ، وإن كان الأمل في ممارستها ضغطاً على إسرائيل من أجل الانسحاب كان في هذه الفترة شبه مفقود . وفي السنة الأخيرة من حياة عبد الناصر ازداد الحضور السوفيتي في مصر ، للرد على الغارات الاسرائيلية التي كانت قد توغلت الى أعماق البلاد . وعندما زار عبد الناصر موسكو سرا في يناير ١٩٧٠ ، كان هو نفسه الذي طلب حضور السوفيت للدفاع عن العمق المصري عن طريق الصواريخ المضادة للطائرات ، ووافق السوفيت بعد تردد ، وكان حضورهم هو الذي أوقف الغارات الاسرائيلية على الأهداف المدنية في مصر ، ولولا ذلك لشهدت المدن المصرية تخريبا واسع النطاق .

كانت هناك إذن حاجة حيوية الى وجود السوفيت والى الأسلحة السوفيتية ، يقابلها تصعيد متزايد للهجة العداء ضد الولايات المتحدة . وعندما اعتلى السادات الحكم ، كان من الطبيعي أن يواصل السير ، أول الأمر ، في هذا الطريق ، لا سيما وأن الوجود السوفيتي كان حتى ذلك الحين ضرورة حيوية لحماية الأهداف المدنية في مصر . ولكن السياسة المرسومة ، في المدى الطويل ، كانت هي التباعد التدريجي عن السوفيت ، وطرح فكرة إمكان التفاهم مع أمريكا ، ثم الدعوة الى الكف

عن معاداة أمريكا لأن من الممكن « تحييدها » في الصراع العربي الاسرائيلي . وبالتدريج تنهيا العقول للنتيجة المطلوبة ، أعني إنهاء الوجود السوفيتي في مصر ، وهو المطلب الأساسي لأمريكا ، بحجة أنه يساعد على عملية « التحييد » هذه . وعندما يطمئن الأمريكيون الى أنهم قد أصبحوا وحدهم في الساحة ، وهم وحدهم حلفاء الطرفين المتنازعين ، العربي والاسرائيلي ، عندئذ يمكنهم أن يسيروا بهدوء وثقة في طريق السيطرة الكاملة على المنطقة ، وتحقيق الصلح بين الطرفين اللذين أصبحا داخلين في نطاق نفوذ أمريكا بلا منافس .

هذا هو المخطط الشيطاني الذي رسم لمصر ، وللمنطقة العربية بأسرها ، بمجرد تولي السادات الحكم ، ولكن لنقل مرة أخرى إن التدرج الشديد كان جزءا أساسيا من نجاح الخطة . فليس من السهل أن تظل تقنع الناس ، سنوات طويلة ، بأن السوفيت أصدقاءنا والأمريكان ألد أعدائنا ، ثم تنتقل بهم مرة واحدة الى القول بأن السوفيت هم الشياطين الحمر والأمريكان يمكن أن يصبحوا أصدقاء ، أو يمكن على الأقل « تحييدهم » ومن هنا كان من الضروري تنفيذ أهداف هذا المخطط الطويل الأمد خطوة خطوة ، فتوضع الأسس أولا ، ثم تأتي الخطوات التالية واحدة إثر الأخرى . ولما كانت مرحلة الانتقال الأولى هي الأصعب دائما ، فقد كانت تحتاج الى حذر وبراعة من نوع خاص .

وقبل أن نعرض المراحل التي مرت بها هذه الخطوة ، دعونا نتأمل تقييم هيكل الأخير ، في « خريف الغضب » وفي غيره من كتاباته القريبة العهد ، لما حدث في هذه المرحلة .

إن هيكل يتحدث بطريقة يصفها بأنها « منصفة » عن دور السلاح السوفيتي في هذه المرحلة ، فيقول : « في الحقيقة ، وللانصاف ، فإن الاتحاد السوفيتي لم يقصر في معاملة مصر أثناء حرب أكتوبر أو بعدها مباشرة . ولا يمكن لأحد أن يتجاهل - بصرف النظر عما قيل ويقال - أن كل ما تحقق في حرب أكتوبر تحقق بسلاح سوفيتي . وبعد حرب أكتوبر مباشرة فإن الاتحاد السوفيتي قدم لمصر ٢٥٠ دبابة من طراز « تي يو ٦٢ » هدية تعويضا لها عن خسائر الحرب ، كما أنه باع اليها فيما بعد ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢٣ المتطورة . ومع ذلك فقد كانت مكافأته هي استبعاده من مؤتمر جنيف في ديسمبر ١٩٧٣ وفي أبريل ٧٤ كان السادات عنيفا في هجومه على الاتحاد السوفيتي بأنه قصر في التزامه بتعويض مصر عن كل خسائرها في القتال ، دون أن يشرح الأساس الذي جعله يتصور أن هناك التزاما سوفيتيا بتعويض مصر عن خسائرها » . ثم يجري هيكل مقارنة بين ما اشترته مصر من الاتحاد السوفيتي على مدى عشرين عاما (١٩٥٥ / ٧٥) وقيمته ٢٢٠٠ مليون روبل ، دفعت منها ٥٠٠ مليون روبل وبقي عليها ١٧٠٠ مليون ، ودخلت بها مصر خمسة حروب : السويس واليمن وحرب ٦٧ وحرب الاستنزاف

وحرب أكتوبر ، أما السلاح الأمريكي فكانت قيمته ٦٦٠٠ مليون دولار في ست سنوات (٨١ / ٧٥) لم تدخل بها أي حرب جديدة .

ولنستمع الى شهادة هيكل في حديث قريب العهد عن أضرار التسليح عن طريق أمريكا : « لقد كانوا (يقصد المملكة العربية السعودية) قلقين جدا مما يسمونه الخطر الشيوعي في المنطقة ، وكانوا يريدون إخراج السوفيت . . . وصحيح أنهم مولوا بعد ذلك شراء أسلحة غربية ، ولكنني ممن يعتقدون أن الأسلحة الغربية لا تستطيع أن تدافع ضد إسرائيل . إنها تصلح لعمليات في الكونغو أو السودان أو الصومال ، أما إسرائيل فلإنها ستتلقى أمام كل قطعة سلاح أمريكية يحصل عليها العرب ، لها ما يوازيها ، بل ما يتفوق عليها ويلاشيها » (١) .

هكذا يتحدث هيكل الآن ، وحديثه الحالي يعبر ، بلا شك ، عن اتجاه وطني واضح . ومن المهم جدا أن نتذكر تفاصيل كلماته هذه ، لأننا سنعود الآن إلى الوراء ونستعرض بعض الفصول القديمة ، والهامة ، لقصة علاقات مصر مع المعسكرين الكبيرين ، واتجاهات سياسة التسليح ، كما يرويها هيكل بنفسه في فترة التحول التي تحدثنا عنها منذ قليل . وكم أود أن يتنبه القارئ إلى آراء هيكل في هذه الفترة الحاسمة ، إذ

(١) حديث هيكل مع صلاح عيسى . جريدة الأهرام ٢٧ / ٤ / ١٩٨٣ .

أن أمورا عظيمة الأهمية كانت تتقرر عندئذ ، وبذور الشجرة التي « أثمرت » في زيارة ١٩٧٧ ومعاودة ١٩٧٩ وتحالف حكومة مصر مع أمريكا من أجل خدمة الأهداف الأمريكية في مختلف مناطق العالم الثالث - هذه البذور كانت تغرس في تلك الفترة التي سنتحدث عنها ، ببطء ، وذكاء ، وتدرج ، ولكن مع إدراك واضح للهدف البعيد . وسوف أكتفي في معظم الأحيان باقتباسات مباشرة مما كان يكتبه هيكل في ذلك الحين ، مع تعليقات هنا وهناك للكشف عن تسلسل التفكير وتغير اتجاهه ، وفي ظني أن أقوال هيكل وحدها تغني عن كل تعليق ، وأن القراءة الذكية لها تكشف للقارئ عن كل شيء .

* * *

فلنبدا بما كان يقوله هيكل في عام ١٩٧٠ . وقد اخترت هذا العام لأنه آخر الأعوام التي كان هيكل يكتب فيها خلال حكم عبد الناصر ، أي أنه كان هنا يعرض آراءه السياسية في الوقت الذي كانت فيه سياسة الدولة الرسمية تؤيد بقوة التسليح من الاتحاد السوفيتي ، وتعتبر الصداقة المصرية السوفيتية عاملا أساسيا في صمود مصر وتمكينها فيما بعد من إزالة آثار العدوان ، بينما تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها العدو الرئيسي الذي كان أكبر عوامل هزيمتنا في حرب ١٩٦٧ . فكيف كان هيكل يكتب في هذه الفترة ؟

● « ما زالت هناك بين قوى القومية العربية عناصر تنسى إسرائيل لكي تغرق نفسها في حرب مقدسة مع الشيوعية ، بينما الدول الشيوعية هي التي وضعت سلاحها في يد العرب ولولاه لما كان هناك أمامهم بديل عن الاستسلام . » (٢)

● « منذ يونيو ١٩٦٧ . . . فإن دور الاتحاد السوفيتي وأثر هذا الدور هو الذي ساعد الأمة العربية على تحقيق إرادتها بالصمود ضد الأمر الواقع الذي حاول تحالف الاستعمار والصهيونية فرضه عليها عسكريا . »

● « المناورة الأمريكية واضحة أمام أي عربي . فهي تريد عزل العرب عن الاتحاد السوفيتي لا لكي يخرج الصراع العربي الإسرائيلي من نطاق الحرب الباردة بين القوى الكبرى . . . ولكن لكي يبقى الطرف العربي تحت رحمة الأمر الواقع الذي يفرضه السلاح الأمريكي الذي تمسك به إسرائيل . »

● « الاتحاد السوفيتي له دور في الشرق الأوسط بحكم صداقته للعرب ، وهو دور أوجده العرب بأنفسهم قبل أن يوجده الاتحاد السوفيتي لنفسه - ردا على دور الولايات المتحدة وارتباطها بإسرائيل . » (٣)

(٢) مقال : « إلى متى الضباب ؟ » الأهرام ١٦ / ١ / ١٩٧٠ .

(٣) الاقتباسات الثلاثة السابقة من مقال « أزمة الشرق الأوسط » - ٢٠ / ٣ / ١٩٧٠ .

● « دور الاتحاد السوفييتي الكبير والخطير ليس فقط في إعادة تسليح الجيش المصري ولكن أيضا في ارسال المئات من خبرائه للمشاركة في إعداد الجيش المصري للقتال على مستوى الحرب الحديثة . وهو بهذا يسجل سابقة جديدة في التاريخ ، لأن الاتحاد السوفييتي بهذه السابقة كان أول بلد أوروبي يبعث بالعسكريين من أبنائه إلى أرض آسيوية وأفريقية ، لا لكي يسيطروا ويستعمروا . . . ولكن لكي يساعدوا هذه الأرض . . . على محاربة السيطرة والاستعمار . »

« لماذا يتخذ الاتحاد السوفييتي هذا الموقف المؤيد لنا ؟
الرد : أن الأمر بالنسبة للاتحاد السوفييتي مسألة مبدأ ، وهو عداء الاستعمار . »^(٤)

أما عن أمريكا فيقول هيكل في هذه الفترة نفسها :

● « إن الولايات المتحدة صرحت لإسرائيل باستخدام طائرات الفانتوم في غارات بالعمق ضد الأراضي المصرية ، ولم تكن إسرائيل تستطيع أن تفعل ذلك إلا بتصريح أمريكي واضح . »^(٥)

● « إن العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة وصلت الآن إلى

(٤) « ما هو الاختلاف والخلاف ؟ » ١٤ / ٨ / ١٩٧٠ .

(٥) « المائة يوم القادمة » - ١٣ / ٢ / ١٩٧٠ . ويلاحظ أن « المانشيت » الرئيسي لهذا العدد كان حول غارة إسرائيل على مصنع أبوزعبل ، حيث قتل وجرح عدد كبير من العمال ، وكان العنوان « الجريمة الإسرائيلية الأمريكية » .

الحد الذي لم تعد فيه السياسة الأمريكية قادرة على أن تظهر أو تمارس أي قدر من الاستغلال عن الإرادة الإسرائيلية . «^(٦)

● ويشير إلى وقوف أمريكا فيصفه بأنه « التعهد باستمرار تفوق إسرائيل في قوة النيران على كل ما لدى العرب مجتمعين من قوة النيران . »^(٧)

● « إن السياسة الأمريكية الممعة في عدائها للعرب ، والممعة في تحيزها لإسرائيل ، استمرت على مدى عهدين (جونسون وبيكسون) من سنة ١٩٦٧ حتى الآن . . . ومعنى ذلك أن هناك تخطيطا أعلى من أن تغيره اختلافات العهود أو الأحزاب أو الرئاسات . » ثم يقتبس هيكل في المقال نفسه أقوالا ويشير إلى أحداث تحيزت فيها أمريكا ضد العرب بوضوح ، ويعلق على ذلك قائلا إن هذه الوقائع « تستطيع أن ترد على دعوى السياسة الأمريكية المتوازنة . »^(٨)

● ويحدد هيكل أهداف أمريكا في المنطقة فيقول في نص هام : « ماذا تريد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط ؟ . . . »

« أولا : إخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة ، مع تجنب المواجهة المباشرة معه في نفس الوقت .

(٦) « السياسة الأمريكية والإرادة الإسرائيلية » - ١٩٧٠ / ٢ / ٢٠ .

(٧) « المسدس . . وفي يد من هو ؟ » - ١٩٧٠ / ٣ / ٦ .

(٨) « رسائل على الطبول الأفريقية » - ١٩٧٠ / ٣ / ١٣ .

« ثانيا : الاحتفاظ بإسرائيل قوية في الشرق الأوسط ، قادرة على القيام بدور حارس المصالح الأمريكية في المنطقة .

« ثالثا : إبقاء العالم العربي في حالة من الضعف يسهل معها على الولايات المتحدة تأمين مصالحها .

« رابعا : تحديد دور مصر في المنطقة ، أو بعبارة أوضح حصار دور مصر . . .

« هذا هو مجمل مطالب الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط . . . في عالم السبعينات . »

ثم يذكر هيكل القراء بعبارة هامة قالها كيسنجر : « إننا يجب أن نطرد expel الاتحاد السوفييتي من منطقة الشرق الأوسط بكل الطرق والوسائل » ويعلق عليها بقوله : « ومن المهم لنا جدا أن نتذكر ذلك ، وأن لا يغيب عنا معناه . »^(٩)

هذا ما كان يقوله عن السوفييت وأمريكا في الأشهر الأخيرة من حياة عبد الناصر ، ومن المهم أن نؤكد المعاني الرئيسية التي كان يدعو إليها عندئذ : لا غناء لنا عن الاتحاد السوفييتي في التسليح - صداقة السوفييت مسألة مبدأ ، لا مسألة مصالح - العرب ، ومصر بالذات ، هم الذين طلبوا التواجد السوفييتي ، الذي لم يفدهم في التسليح فقط ، بل في التنمية أيضا - أمريكا

(٩) « أمريكا . . نظرتها إلى الأزمة وأسلوبها » - ١١/٩/١٩٧٠ .

تحرص على بقاء إسرائيل أقوى من العرب أجمعين - الإرادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الإسرائيلية - عداة أمريكا للعرب هدف دائم ، يتجاوز العهود والرئاسات - سياسة التوازن بين العرب وإسرائيل هي ، في نظر أمريكا ، خرافة - أول أهداف أمريكا هو إخراج السوفييت من المنطقة ، ثم تقوية إسرائيل وإضعاف العرب ، ثم حصار مصر وعزلها عن العرب ، وهذه الأهداف ليست مرحلية بل هي أهداف السبعينات كلها .

* * *

فلنتأمل بعد ذلك ما قاله هيكمل في الستين الأوليين من عهد السادات . ولنتذكر ما قلناه من قبل ، من أن الخطة - خطة التحول الحاسم - ينبغي أن تكون شديدة التدرج : فهناك شعب مهياً ذهنياً لأفكار كتلك التي لخصناها من قبل ، وهناك تسليح لا يمكن الاستغناء عنه بين يوم وليلة ، وهناك اقتصاد كان لا يزال مرتبطة بالمساعدات السوفيتية إلى حد بعيد . لذلك كان من الطبيعي ألا تنكشف الأوراق مرة واحدة . فبعد حركة التصحيح ، في مايو ١٩٧١ ، مباشرة ، كان المطلوب هو تنفيذ حجة الجناح الذي كان معادياً للسادات ، والذي عبر عنه الفريق فوزي بقوله إن السادات «يبيع البلد للأمريكان» ، ولذلك كان من الضروري الاستمرار في الضرب على النغمة السابقة ، النغمة الناصرية ، بعض الوقت ، لاسيما وأن السوفييت

بدأوا ينزعجون . وهكذا كتب هيكل يقول : « أقول بأمانة وصراحة أنه لولا الاتحاد السوفييتي لما كان أمامنا خيار غير القبول بشروط المنتصرين كما حدث سنة ١٩٤٨ . قيمة الصداقة العربية السوفيتية أنها ليست صداقة ظروف ، أي أنها ليست صداقة تكتيكية ، وإنما هي - كما كان يقول جمال عبد الناصر - صداقة نضال ضمن الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، ونضال من أجل الحرية والتقدم . . وإنصافا للاتحاد السوفييتي فإن تعامله مع جمال عبد الناصر ومع أنور السادات بعده كان تعامل الشرفاء . ومن الحق أن يقال أنه لا يمكن أن يكون هناك مصري يحترم مصريته أو عربي يحترم عروبه إلا ووجد نفسه صديقا للاتحاد السوفييتي . »^(١٠)

الرسالة التي يريد هيكل أن ينقلها إلى السوفييت هنا هي : اطمئنوا . . . لقد قضينا على أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أنصاركم ، ولكننا ما زلنا أصدقاء بقوة .

ولكن مخاوف السوفييت أخذت تزداد بعد الدور الأساسي الذي لعبته القوات المصرية في إحباط انقلاب هاشم العطا (اليساري) في السودان ، ولذلك يحاول هيكل طمأنة مخاوفهم (لأن الوقت لا يزال مبكرا للتخلص منهم) ، فيبدأ مقاله بقوله : « لا يمكن لأحد أن يتهمني بمالأة الاتحاد السوفييتي ، بل

(١٠) « ماذا أقول » - ٢١/٥/١٩٧١ .

إن عناصر من داخل الاتحاد السوفييتي أو موالية له بالفعل أو بالادعاء رمتني مرات بمهالة أمريكا لأنني طالبت بعدم التصادم والتناطح معها بالقوة : « كان همس عناصر السلطة (يقصد الجناح الناصري الآخر) ولأهداف صراعهم من أجلها أن أنور السادات قد عقد صفقة لحل الأزمة من وراء ظهر الاتحاد السوفييتي . . . حتى توحى للاتحاد السوفييتي بأن أنور السادات يستعمله كورقة في لعبة وليس صديقا في نضال . »^(١١)

ورغم محاولة الترضية الواضحة ، فإن هذا الاقتباس يهمننا في أمرين :

الأول هو وجود تلميح إلى موقف جديد من أمريكا تعرض هيكل بسببه للوم من بعض الجهات ، وإن كان هيكل لا يزال يؤكد ، حتى ذلك الحين ، أن كل شيء على ما هو عليه .

والثاني هو وصف هيكل للسادات في عام ١٩٧١ بأنه صديق للسوفييت في النضال - نفس السادات الذي عرض علينا هيكل في « خريف الغضب » تفاصيل عن ماضيه مع أجهزة المخابرات المختلفة المتصلة بالأمريكيين اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

ثم تزداد التلميحات وضوحا بالتدريج ، مع الاحتفاظ

(١١) « مرة أخرى : العلاقات العربية السوفييتية » - ٢٧ / ٨ / ١٩٧١ .

بالموقف التديم (مؤقتا) . فهو في هذه المرحلة لا يزال يؤكد أن « الهدف الأكبر الذي تسعى إليه إسرائيل والولايات المتحدة هو إخراج العامل السوفييتي كله تأثيرا وتواجدا في أزمة الشرق الأوسط ، لأن هذا العامل هو أهم القوى الضاغطة ، وإذا لم ندرك ذلك ، وإذا لم نعمل على مواجهته - اذن فنحن نقدم للعدو سلبه على طبق من فضة . »^(١٢) ومع ذلك فإن في المقال نفسه إشارات واضحة إلى أن من الممكن أن يتوقف إمداد أمريكا لاسرائيل بالسلاح ، لو أن العرب لعبوا لعبة التوازنات والحسابات ، والعقبة الرئيسية في وجه هذه الخطوة ، من وجهة نظر أمريكا ، هي التواجد السوفييتي . وهكذا تنتقل الى موقف جديد ، فبعد أن كان الموقف السابق هو : لا أمل من أمريكا ، أصبح الآن : هناك أمل ، بشرط أن نعرف قواعد اللعبة .

وفي الوقت ذاته كانت فكرة « تحييد أمريكا » قد بدأت تظهر في كتابات هيكلمنذ اوائل عام ١٩٧١ ، أي بعد حوالي أربعة أشهر من تولي السادات السلطة . فهو يتحدث - في فبراير من هذا العام - عن ضرورة الاقتداء بإسرائيل في تحقيق أهدافها خطوة خطوة ، بحيث يكون هدفنا الحالي هو ازالة آثار العدوان ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ومن المحتمل أيضا ، وبجهد متواصل وعادل ، أن الولايات المتحدة يمكن تحييدها بشكل ما ولو جزئيا أثناء تحقيقه ، وان كان ذلك متداخلا في

(١٢) « شهور مضت ، وشهور قادمة » - ١٩٧١ / ٦ / ٢٥ .

اوضاع وظروف قد تقتضي شرحا أوسع»^(١٣) وفي المقال التالي يزيد فكرته ايضاحا فيقول : « إذا أردنا ان نصل بنتيجة ما حدث سنة ١٩٦٧ الى نجاح يماثل نجاحنا سنة ١٩٥٦ فإننا يجب ان نحصل على عنصرين : أولهما تأييد احدى القوتين العظميين ، وذلك متاح لنا بتعاطف وصدقة وتأييد الاتحاد السوفيتي . والثاني تحييد القوة العظمى الأخرى ، وهي الولايات المتحدة ، او على الاقل منع تدخلها ضد مصلحتنا في الازمة وغير ذلك مستحيل . »^(١٤) ثم يأتي بعد ذلك كلام أخطر : « من هنا فلقد كنت ، ومازلت ، أختلف مع النغمة التي تقول إن الذي نواجهه امامنا في ميدان القتال هو الولايات المتحدة وليس إسرائيل (لاحظ أنه كان يقول بعكس ذلك تماما منذ عام) . والصحيح أن بيننا وبين الولايات المتحدة مواجهة سياسية ، أو صراعا سياسيا ، وهدف هذا الصراع هو الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة كحد أقصى ، أو تحييد الموقف الامريكي تجاه اسرائيل كحد أدنى ، وذلك عن طريق توجيه ضغط دولي وعربي ومصري ضد الولايات المتحدة . . . هذا الضغط . . . يقنع الولايات المتحدة . . بأنها تواجه تقلصا مخيفا في هيبتها كقوة عظمى ، والهيبة على رءوس الدول العظمى كالتيجان القديمة على رءوس القياصرة»^(١٥) . وبعد قليل يحدد الهدف من صراعنا مع

١٣ - «عناقتنا بامكانية تحقيق هدف» - ١٩٧١/٢/٢٦ .

١٤ - «التضاريس في الطبيعة وفي السياسة» - ١٩٧١/٣/٥ .

١٥ - المقال السابق نفسه .

الولايات المتحدة ، بانه « ليس هزيمتها في ميدان القتال ، وإنما اخراجها ، وبكل وسيلة ، من ميدان القتال » . « وأقول إنني استطيع ان اجد طريقا يقدر به الشعب المصري ان يحارب اسرائيل ويهزمها . . ولكن ذلك يتطلب ان تكون الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان القتال » .

إن تصعيد لهجة « تحييد امريكا » كان يزداد طوال عام ١٩٧١ ، وكانت المغالطة التي ارتكبتها هيكل مزدوجة : فبعد ان كان ايام عبد الناصر يربط بين امريكا واسرائيل بحيث يستحيل فصلهما ، وبعد أن كان يؤكد أن هدف امريكا الدائم والاستراتيجي هو اضعاف العرب من اجل هدمهم ، اصبح الان يقدم الى القارىء ، في جرعات خفيفة أول الأمر ، ثم تزداد كميتها بالتدريج - فكرة إمكان تحييد امريكا وإيقاف فاعليتها في مؤازرة اسرائيل ، بل ويرى ان الحرب بدون ذلك مستحيلة . ولكن اذا ادركنا مدى استراتيجية التحالف بين امريكا واسرائيل ، واذا ادركنا ان امريكا لا بد ان تعمل ما من شأنه منع العرب ، بشتى الطرق ، من أن يكتسبوا القدرة اللازمة لممارسة الضغط عليها ، لوجدنا الى اي حد تؤدي « وصفة » هيكل الجديدة « لهزيمة » اسرائيل الى طريق مسدود .

والى هذه الفترة ينتمي مقال « تحية للرجال » المشهور (١٢ مارس ١٩٧١) الذي بالغ فيه هيكل ، وكأنه جنرال خبير في ميدان القتال ، في وصف الصعوبات المميتة التي سيصادفها

الجيش المصري لو حاول عبور قناة السويس التي هي اخطر مانع مائي في العالم ، وتحدث عن القوة الهائلة للجيش والطيران الاسرائيليين ، وكيف ان العبور يجعل جيشنا « يواجه ما لم يواجهه جيش من قبل » . ولم تكن عملية التخويف هذه الا جزءا من السياسة الجديدة ، فلم يكن من المستغرب اذن ان يثور عليه انصار السياسة الناصرية السابقة ثورة عارمة .

ولنختم هذا العرض لفكرة التحديد بعبارات تظهر فيها اتجاهات هيكل الجديدة ، التي استدارت بزاوية ١٨٠ درجة عن اتجاهاته منذ عام واحد ، بوضوح كامل : « اذا كانت اسرائيل قد انتصرت على العرب في معارك بفعل التأييد الأمريكي فإن هذا التأييد الأمريكي ليس دائما ، وإنما الدائم هو المصالح الأمريكية فقط . . ومن هنا فإن التأييد الأمريكي ليس سلاحا أبديا في يد اسرائيل ، وهذه عبرة الأيام » . (١٥) .

وفي العام التالي حدثت الخطوة الحاسمة ، التي ظهرت فيها معالم السياسة الجديدة بلا موارد ، والتي تُعد الكتابات السابقة تمهيدا متدرجا لها ، وأعني بها طرد الخبراء السوفييت من مصر في يوليو ١٩٧٢ . هنا نود ان نذكر القارئ بالاعتبارات التي تعمدنا أن نكررها من قبل ، والتي تبين ان هيكل كان واعيا تماما بأن طرد الخبراء السوفييت هو هدف السياسة الأمريكية في

١٥ - « العام الحاسم ومركز السادات » - ٧ / ١١ / ١٩٧١ .

المنطقة ، وبأننا إذا لم نواجه ذلك فكأننا « نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضه » . ولكنه ، في ظل السياسة الجديدة ، لا يجد أية غضاضة في أن يحمل طبق الفضة بيديه ، ويبتلع كلماته ومواقفه السابقة بسهولة تامة ، ويساعد « العدو » على تحقيق مطلبه بكل ما يملك من قدرة وموهبة ، فحين خرج السوفيت بالفعل ، لم يقل لنا هيكلم كلمة واحدة عن تأثير ذلك على الولايات المتحدة ايجابيا ، ولم تصدر عنه كلمة واحدة يقول فيها إننا كنا نستطيع استثمار هذا الطرد لصالحنا ، كما أصبح يقول في أيامنا هذه ، ولم يوجه كلمة نقد واحدة ، بل إنه ، على العكس من ذلك ، اخترع قصة اعتقاد الاتحاد السوفيتي بوجود فراغ عقائدي في المنطقة ، واستعرض ، بلا مناسبة ، ولمجرد التحرش بالخصوم الجدد وتبرير سياسة السادات الجديدة ، تاريخ الخلافات العقائدية مع السوفيت منذ الستينات ، وكلها أمور حشرت حشرا بصورة ملفقة ، إذ أن هذه الخلافات لم تمنعه ، أيام عبد الناصر ، من امتداح السوفيت المبالغ فيه . والأخطر من ذلك أن هيكلم يذيع سرا (يؤكد أنه لم يكن سرا ، وإن كان معظم الناس لم يعرفوه الا عن طريقه) هو ان خمس طائرات سوفيتية كانت قد سقطت في يوم واحد ، هو ١٨ ابريل ١٩٧٠^(١٦) . وكان الهدف من هذا الاعلان ، الذي بلغ قمة التنكر لتلك « الأفضال » التي كان يسبح بحمدها من قبل ، هو التشكيك في قدرة الطيارين

١٦ - « الحوار المطلوب والضروري » - ٧٢ / ٨ / ١١ .

السوفيت ، ولا مانع لديه من تحطيم معنويات جيشه وأبناء وطنه عن طريق اعلان تفوق إسرائيل الى هذا الحد حتى على السوفييت .

ويكمل هيكل حملته على السوفيت ، الذين كان يتغزل فيهم قبل اقل من عامين ، والذين يدعونا الى النام على فقداننا لصدقاتهم في أيامنا هذه ، فينشر وثيقة « سرية » (لا أدري من أين حصل عليها ، وأتمنى أن يثبت لنا في هذه الأيام إن كانت صحيحة أم ملفقة) هي تقرير لجنة داخل الحزب الشيوعي السوفيتي عن برنامج الحزب الشيوعي السوري ، وفي التقرير تشكيك في القومية العربية وإمكانية الحل العسكري أو قيام الدولة الفلسطينية . ولا ينس هيكل ان يقلل من قيمة السلاح السوفيتي ، مؤكدا انه « كان متأخرا عن الولايات المتحدة في هذا المضمار سبع سنوات »^(١٧) .

ومن الملفت للنظر أن هيكل قد استخدم ، في هذه الحملة على السوفيت ، نغمة اصبح السادات فيما بعد يستخدمها على أوسع نطاق لإثارة مشاعر الشعب المصري ضد بقية الشعوب العربية عندما حدثت المقاطعة بعد زيارة القدس ، واعني بها نغمة « مصر اولاً » . فخروج السوفيت « حرك نبض الوطنية المصرية .. ووضعها في موضع الاعتماد على النفس »^(١٨) ..

١٧ - « في موسكو ايضا : وقفة موضوعية مع صديق » - ١٨ / ٨ / ٧٢ .

١٨ - انظر الهامش رقم (١٦)

نفس خروج السوفيت الذي كان منذ قليل يوصف بأنه مطلب العدو ، وهدف السياسة الأمريكية الأول . . وهو في موضع اخر يتحدث عن خطأ السوفيت لأنهم « لم يدركوا قيمة مصر الحضارية ، ولم يدركوا ان مصر هي مصر ، وسوف تبقى دائما مصر »^(١٩) .

كان التحول قد اكتمل وكانت الحلقة قد اغلقت باحكام ، وتحول الصديق الذي وصف قبل ذلك بأنه تعامل مع عبد الناصر والسادات معاملة الشرفاء ، والذي « لا يوجد مصري يحترم مصريته ، ولا عربي يحترم عروبه إلا وكان صديقا له » - تحول الى عدو لحضارة مصر ، واصبح خروجه علامة على الوطنية . .

وعندما وصل هيكل في كتابته الى هذه المرحلة ، استأذن القارىء ليأخذ^(٢٠) أجازة لمدة شهر من الكتابة . .

كان مدركا انه اكمل مهمته ، وذهب ليستريح . .

* * *

والآن ، دعونا نلقي نظرة هادئة على تلك الكلمة ذات المظهر البريء ، التي كانت الخطوة المتدرجة ، الشديدة الحذر والذكاء ، تستهدف اقناع الأذهان بها ، واعني بها كلمة « تحييد امريكا » . هذه الكلمة تلخص هدف السياسة الجديدة كلها : فبينما كان هيكل يؤكد ، في ظل سياسة عبد الناصر ، أن أمريكا لا

١٩ - انظر الهامش رقم (١٧) .

٢٠ - في مقال ١٨ اغسطس ١٩٧٢ .

تقل عداء لنا عن اسرائيل ، وأن مصالحهما مرتبطة ارتباطا عضويا يستحيل تفكيكه ، وأن الأمور وصلت الى حد أن الارادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية ، وان دفاع امريكا عن اسرائيل وسعيها الى اضعاف الدول العربية إنما هو سياسة دائمة وليس على الاطلاق وضعاً مؤقتاً - بينما كان هيكل يؤكد ذلك كله ، أصبح في عام ١٩٧٢ يركز جهوده على طرح هذا المفهوم الجديد ، الذي يتناقض كلية مع المفاهيم السابقة ، وأعني به مفهوم « التحييد » ، ويعني به كف يد امريكا عن التدخل لصالح إسرائيل ضد العرب . فلنحلل اذن هذا المفهوم ، ونستخلص نتائجه .

ان لعملية التحييد هذه وسيلتين :

الأولى هي تنمية القوة الذاتية العربية ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، الى الحد الذي تضطرفه امريكا الى ان تعمل حسابا لقوتنا ، وخاصة حين تصل هذه القوة الى حد تهديد المصالح الأمريكية في المنطقة . فكيف تتحقق لنا مثل هذه القوة ؟ من الواضح انها ، لكي تصل الى الحد الذي تشكل فيه تهديدا حقيقيا ، وليس مجرد تهديد مظهري أو مؤقت ، لمصالح امريكا ، تحتاج الى تغيير شامل في نمط الحياة العالم العربي وفي اساليب حكمه . ولو وصلنا بالفعل الى مثل هذا التغيير ، فلن نكون عندئذ بحاجة الى تحييد امريكا ، لاننا عندئذ نستطيع ان ننتزع حقوقنا بأيدينا ، شاءت امريكا ام ابنت . وابلغ دليل على ضخامة

حجم التغيير ، السياسي والاقتصادي والعسكري ، المطلوب تحقيقه في مجتمعاتنا من اجل الوصول الى تحييد امريكا ، ان هذا التحييد لم يتحقق حتى عندما وصل التضامن العربي ، عسكريا واقتصاديا ، الى مستوى عال لم يبلغه في اي وقت من قبل ، في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . فقد زادت امريكا من مساعداتها لاسرائيل أثناء الحرب ، وقدمت اليها اضعف جسر جوي من معدات القتال عرفه التاريخ ، مما اتاح لها قلب ميزان الحرب جزئيا لصالحها . وان طريق القوة الذاتية العربية المطلوب من اجل التحييد طويل جدا ، ولو بلغناه يوما ما لما أصبح للتحييد عندئذ أي داع .

أما الطريق الآخر ، فهو الطريق العكسي ، أعني طريق الأذعان لمطالب أمريكا وتقديم الخدمات والتسهيلات لها ، وتحقيق مصالحها في المنطقة الى الحد الذي يأمل اصحاب هذا الطريق ان يؤدي الى تخفيف انحيازها لاسرائيل ، مادام هناك أصدقاء جدد يؤدون وظيفة اسرائيل التقليدية ، وهي حماية المصالح الامريكية . هذا الطريق إذن لا يكمن في تهديد مصالح امريكا ، بل في التنافس مع اسرائيل على حماية هذه المصالح . ونظرا الى أن الطريق السابق طويل وشاق ، ويفترض شروطا يحتاج تحقيقها الى ثورة كاملة لو حدثت لما عدنا نحتاج الى هذا التحييد ، فإن نوع التحييد الذي يمكن تنفيذه عمليا ، في ظروف العالم العربي الراهنة ، هو النوع الثاني ، أعني التحييد

الاستسلامي . ولهذا التحييد دائما ثمن فادح . فما الذي يدفع امريكا الى الامتناع عن مساندة اسرائيل او التخفيف من انحيازها لها ؟ ان اسرائيل حليف قوي ، يحقق لها مصالح ضخمة : ردع قوى التحرر في العالم العربي ، ضمان تدفق النفط للغرب ، صدّ « الخطر الشيوعي » . وعلى ذلك فالمطلوب منا ان نقوم نحن بأداء هذه الخدمات كلها لأمريكا ، حتى تدرك أن مصالحها لا تتحقق على يد اسرائيل وحدها ، لا سيما وان لدينا مزايا خاصة ، هي اتساع الرقعة جغرافيا ، واستراتيجية الموقع ، والموارد البشرية والمادية الكبيرة .

هذه هي النظرية التي تبنتها المدرسة الساداتية ، عمليا ، وكانت اولى خطواتها هي طرد الخبراء السوفيت إرضاء لأمريكا . وتلتها خطوات اخرى : منح القواعد او التسهيلات العسكرية ، المشاركة في بعض الحروب الصغيرة لصالح الغرب (زائير والصومال وتشاد وافغانستان وغيرها) ، تغيير اتجاه الاقتصاد بحيث يصبح رهينة للبنوك الأمريكية والدولية ، وتأکید دور القطاع الخاص مع الإقلال من أهمية القطاع العام ، الخ ..

وهكذا يؤدي الجري وراء سراب « التحييد » الى ان يصبح العرب أشبه « بالزوجة الثانية » للزوج الغني والقوي : أمريكا . وككل زوجة ثانية ، يتعين على العرب ان يتفننوا في إرضاء أمريكا وإغرائها بالتنازلات حتى تنصرف عن الزوجة

الأولى (إسرائيل) . ومع كل ذلك فإن إسرائيل القوية ، التي يتسم نظامها بالثبات ، ولا يتصف بتقلبات الأنظمة العربية ومزاجيتها ، والتي تشارك أمريكا « ديمقراطيتها » واعتمادها على مؤسسات ثابتة ، لا على أهواء شخصية - إسرائيل هذه هي التي تكسب « الزوج » في النهاية ، بعد أن تكون الزوجة الثانية قد أعطت أعز ما تملك !

هذه هي النتيجة التي توصل اليها سياسة « التحييد » عمليا . وقد اختبرت هذه السياسة ، كما قلت ، في حرب أكتوبر ، فكانت النتيجة مزيدا من التدخل الأمريكي لصالح إسرائيل ، مما جعل السادات نفسه يقول : أوقفت القتال لأنني لا أستطيع أن أحارب أمريكا ! ولكن المأساة هي أن نفس اللحظة التي بلغ فيها تدخل أمريكا لصالح إسرائيل ذروته ، كانت هي اللحظة التي بلغ فيها هيام أصحاب سياسة « التحييد » بأمريكا أعلى قممه . ومنذ أن بذلت أمريكا أكبر جهد تملكه من أجل تزويد إسرائيل بأضخم كمية من الأسلحة لكي تقتل بها أبناءنا وتحتل أراضينا ، أصبحت هي الصديق ، ثم الحليف والوليف !

في كلتا الحالتين إذن ، وسواء وصلنا الى التحييد عن طريق القوة الذاتية ام عن طريق الاستسلام ، تنتهي سياسة التحييد الى نتائج مناقضة لذاتها ، وتلغي نفسها بنفسها .

* * *

ولنتأمل بعد ذلك نتائج هذه السياسة الجديدة التي نفذت بتخطيط بارع ، بالنسبة الى حرب اكتوبر .

ان هناك جدلا ضخما ، يثيره هيكل في هذه الايام ، حول الارادة السياسية لحرب اكتوبر ، ويرى فيه ان هذه الحرب ، التي حققنا فيها انجازا عسكريا جيدا بجميع المقاييس ، لم تكن نتائجها السياسية على مستوى الأداء العسكري فيها على الاطلاق ، والنقطة الأساسية التي يثيرها هيكل في هذه الأيام هي انه كان من الممكن تطوير الحرب حتى الممرات على الاقل منذ الأيام الأولى ، مما يعطينا مركزا تفاوضيا أقوى بكثير . وفضلا عن ذلك فقد كشفنا أوراقنا للعدو في مراسلات سرية دارت منذ اليوم الثاني للحرب ، اعترفنا فيها بأن هدفنا من الحرب محدود ، وبأننا لن نعمق الصراع او نوسع جبهاته ، مما أتاح لأمريكا ، ولهنري كيسنجر بوجه خاص ، فرصة معرفة خططنا النهائية مقدما واستغلالها لصالح اسرائيل^(٢١) .

وفي تصوري ان الجدل حول هذا الموضوع كله ، بالصورة التي طرحها هيكل ، جدل عقيم . ذلك لأن هيكل يفترض ان كيسنجر لم يعرف النوايا المصرية من الحرب ، الا عن طريق تلك المراسلات السرية ، ومن هنا فإنه يوجه اللوم الى من كتبها والى من اعطى الأمر بكتابتها ، على حين ان كاتبها يدافع عن نفسه

٢١ - انظر احاديث هيكل في « الاهالي » خلال شهري مايو ويونيو ١٩٨٣ .

بحرارة ضد اتهامات هيكل بشأن هذه المراسلات ، وحقيقة الأمر ان امريكا تعرف نوايا الحرب المصرية منذ أمد بعيد . فهناك عوامل كثيرة كانت كلها كافية لمعرفة هذه النوايا : منها مثلاً الصراع بين هيكل والجناح الآخر من الناصريين حول طبيعة الحرب المنتظمة ، ومنها الاتجاه الكامل للدبلوماسية المصرية في عهد السادات خلال السنوات السابقة للحرب ، ومنها طرد الخبراء السوفيت والسعي الى مزيد من التقارب والتفاهم مع أمريكا . كل هذه التطورات لم تكن تؤدي بأي حال الى قيام حرب تحرير شاملة .

ولكن ، لندع الاستنتاجات جانباً ، ولنستمع الى الأقوال الصريحة والمباشرة . فطوال شهور فبراير ومارس وابريل ١٩٧٢ ، كانت كتابات هيكل تركز على « الحل السياسي الذي تسانده قوة عسكرية - لا الحل الدبلوماسي فقط ، ولا الحل العسكري المطلق » . « لا بد ان نفهم ان الولايات المتحدة لن تتحرك - اذا تحركت - الا تحت ضغط ، والا فماذا يدفعها الى الحركة ؟ القوة العسكرية ، نعم ، ولكن . . وفقاً لموازين العصر وفي اطار سياسي شامل »^(٢٢)

وهكذا كان تصور هيكل للحرب هو أن هدفها التحريك ، وتحريك من ؟ الولايات المتحدة بالذات . ولماذا

٢٢ - « سيادة العقل » - ١٧/٣/١٩٧٢ .

نبحث عن تحريك الولايات المتحدة ، وليس اية دولة اخرى ، كهدف للحرب ؟ ألا يفترض هذا ان امريكا تملك كل ، أو معظم ، أوراق اللعبة ؟ هكذا يدل كلام هيكمل بوضوح على أنه يشارك في الموقف الرئيسي لسياسة السادات في ادارة الصراع العربي الاسرائيلي .

ولنستمع الى كلمات أصرح : « الحرب المسموح بها الآن هي استعمال القوة المسلحة لهدف تتوفر له الشرعية الدولية . . ويتوفر للطرف الذي سيحمل السلاح لتحقيق هذا الهدف تأييد احدى القوتين الأعظم على الاقل ، ثم يتوفر لهذا الطرف بقوته الذاتية وبما يتلقاه من أصدقائه طاقة لاشك فيها لتحقيق هذا الهدف في اطار محدد او محدود . ثم يكون القصد من تحقيقه هو التأثير في الوضع السياسي . معنى ذلك انها حرب محدودة . . محدودة الهدف »^(٢٣) . هل هناك ما هو أوضح من هذه العبارات في الدلالة على ان هدف الحرب المحدودة ، لا الحرب الشاملة ، كان مرسوما مقدما ، وان هيكمل كان مشاركا في التخطيط لهذا الهدف والترويج له ؟

ومع ذلك ، فهناك ما هو اصرح حتى من هذا الكلام : « ليكن أن مصر تشعر أن طاقتها تحتل أن تحرر بالقوة المسلحة ولو مائة كيلو متر مربع فقط من أراضيها . . وإذا كانت مصر

٢٣ - « نوع الحرب الممكنة ، والضرورية - ٢٤ / ٣ / ١٩٧٢ »

دقيقة في حساباتها ، فإنها سوف تنجح في تحقيق ما تريد ،
وسوف تحرر بالفعل هذه المائة كيلو متر مربع من اراضيها ،
وسوف تحتفظ بها في وجه أية هجمات مضادة من العدو . . وهذا
يغير صورة الأزمة كلها ، ويفتح الباب لتطورات مباشرة اخرى
في مجرى الصراع » . (٢٤) .

تأمل معي ، أيها القارئ ، هذا الكلام الواضح ، وتأمل
من جهة أخرى تلك الضجة الكبرى التي يثيرها هيكمل في هذه
الايام ، بعد عشر سنوات من الحرب ، وبعد أن نسي الناس ما
قاله في الفترة الممهدة للحرب - اعني الضجة التي أقام بها الدنيا
واقعدها حول ما يسميه « بالعبرة الكارثة » الواردة في رسالة
سرية من حافظ اسماعيل ، مستشار الأمن القومي المصري ، الى
كيسنجر ، نظيره الأمريكي ، وتحدث فيها اسماعيل عن نوايا
مصر في جعل الحرب محدودة وعدم توسيع جبهاتها او تعميق
مسارها . . ألم يقل هيكمل اكثر من هذا قبل وقوع الحرب ، في
مقالات علنية لا في مذكرات سرية ؟ هل كانت أمريكا مضطرة
الى انتظار الرسالة السرية حتى تعرف نوايا مصر في الحرب ؟
والأهم من ذلك ، ألم يكن هيكمل نفسه من أهم المروجين
لسياسة احتلال مساحة محدودة من الأرض ، والثبات فيها ،
وتحريك الأزمة كلها من خلالها - وهو ما حدث بالضبط في حرب
١٩٧٣ ؟

٢٤ - المقال السابق نفسه .

ان في وسع هيكل ، بالطبع ، أن يردّ بقوله ان ما كتبه قبل الحرب شيء ، وما حدث في الحرب الفعلية شيء آخر . فقد أتت الحرب نفسها بمفاجأة لمخططي سياسة تحرير مساحة محدودة من الأرض : هي في الواقع المفاجأة التي كان يدخرها شعب مصر « لعبقرية » السياسيين ، عندما تمكن أبناء الشعب في جيشهم من العبور بسهولة غير متوقعة ، وأحرزوا نجاحا سريعا قليل التكاليف ، مما أوقع المخططين العباقرة في حيرة ، واوجد موقفا جديدا لم يتوقعه واضعو سياسة الحرب المحدودة ، وعلى رأسهم هيكل . ولكن ، هل كان من المعقول ان يحدث تغيير مفاجيء للمخطط السياسية في اعقاب هذا النصر الأول السريع ، بعد ان ظلت الدبلوماسية الرسمية ، من سرية وعلنية ، وأجهزة الاعلام الساداتية والهيكلية ، تبني كل شيء على اساس حرب محدودة تحرر قطعة أرض صغيرة وتحفظ بها ؟ لو كان المخططون والكتاب الصحفيون العباقرة ؛ قد وضعوا منذ البداية بدائل ، وعملوا حسابا للموقف الذي تحقق ، ضمن هذه البدائل ، لربما امكن عندئذ ان تتغير السياسة بسرعة تمشيا مع الوضع الجديد . ولكن كل شيء كان مرسوما على أساس حرب التحريك المحدودة ، ولم تنتظر امريكا رسالة حافظ اسما عيل السرية لكي تعرف ذلك ، بل كان يكفيها ان تثابر - كما ارجح انها فعلت - على قراءة هيكل .

يبقى أمامنا أن نتساءل : ما تأثير السياسة التي اتخذت مجرى

جديداً كل الجدة في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، على التطورات التالية في مصر وفي العالم العربي ؟ ان هاتين السنتين تحملان ، في رأيي ، بذرة معظم التطورات التالية . واذا كان هيكلاً قد قام بالدور الذي حددنا معالمه في تهيئة الأذهان لتحول حاسم في السياسة المصرية ، ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٢ ، واذا كان قد غير اتجاهه تغييراً جذرياً ، مع تغير الحاكم وسياسته ، خلال هاتين المرحلتين ، فإن معنى ذلك ان مسئولية هيكلاً عن التطورات السلبية المتأخرة للعهد الساداتي مسئولية لا شك فيها . صحيح ان السنين تضيف عوامل ومتغيرات جديدة ، ولكن هذه كلها إضافات للأسس الأولى التي أرسيت في هاتين السنتين الأوليين ، وعلى رأسها التحالف مع أمريكا ، والحرب المحدودة بهدف الصلح الذي تتوسط فيه أمريكا ، والامتناع عن التسليح عن طريق السوفيت والالتجاء الى أمريكا ، نفس البلد الذي يقدم لخصمنا سلاحه ويعلن على الملأ انه يضمن تفوقه .

ومنذ اللحظة التي قررنا فيها اللجوء الى أمريكا ، لكي تتوسط بيننا وبين اسرائيل ، ومنذ اللحظة التي رفضنا فيها السلاح السوفيتي لكي نختر بدلاً منه سلاحاً أمريكياً ، حسمت أمور عديدة تحقق الكثير منها فيما بعد . فهذا القرار ينطوي ، بصورة جنينية ، على فكرة الصلح مع اسرائيل ، وجعل العداء للسوفيت هدفاً رئيسياً لسياستنا ، والتعاون مع أمريكا ، وتطبيق افكارها في حياتنا الداخلية ، وخاصة الاقتصاد .

ولكي ندرك مرارة هذه الحقيقة ، وخاصة في ضوء الضجة التي يثيرها هيكل هذه الأيام ضد العهد الساداتي الذي نسي انه كان فيلسوفه الأول خلال السنوات الأولى والحاسمة من تاريخه ، دعونا نفكر بامعان في مغزى عبارة هامة قالها موشي دايان ، تعليقا على رحلة السادات بالطائرة الى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ : « لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الخبراء السوفيت وبدأ سياسة تنويع السلاح وقبل باتفاقات فك الاشتباك بكل ما يعنيه ذلك من استبعاد للخيار العسكري » (٢٥) .

هذا كلام خطير بقدر ما هو واضح : فأولئك الذين رسموا سياسة تنوع التسليح عن طريق طرد الخبراء السوفيت والترويج لفكرة التقارب التدريجي مع أمريكا ، هم الذين أداروا محركات طائرة السادات المتجهة الى القدس ، لأنهم ربطوا مصير بلادهم وجيوشهم بمصير راعية اسرائيل وحاميتهما . ومن الواضح ان هيكل ، بالنسبة الى هؤلاء ، كان كبيرهم ومفكرهم وموجههم ، فالبذرة الأولى قد غرستها يد هيكل ، وما يتبقى بعد ذلك ليس الا من قبيل التفاصيل . ومع ذلك فان هيكل نفسه هو الذي يأتي في أيامنا هذه ، وينعي على السادات ركوبه تلك الطائرة التي كان هو ذاته قد زودها بالوقود وأدار لها المحركات

٢٥ - النص مأخوذ عن محاضرة للأستاذ توفيق ابو بكر في رابطة الاجتماعيين بالكويت ، في ٢٥ / ٤ / ١٩٨٣ ، وعنوان المحاضرة هو « الولايات المتحدة والصراع العربي الصهيوني » .

أتريد ، أيها القاريء ، معرفة الأصول الأولى للكارثة
الحالية ، و« الجذور » ؟ اقرأ هذه الصفحات ثانية ، وفكر فيها
بإمعان .

الفصل التاسع

عماسام

الفصل التاسع

عماسام

لست أدري لم اختار هيكل أن يوجه كتابه عن السادات الى الجمهور الامريكي على وجه التحديد . ولكن الأمر المؤكد هو أنه ، طوال هذا الكتاب ، كان يضع في ذهنه هذا الجمهور وهو يشرح هذه النقطة أو تلك ، ويقوم بهذا التحليل أو ذاك ، مما أعطى الكتاب ، في مواضع غير قليلة ، طابعا غير مألوف لدى القارئ العربي .

فمنذ اللحظة الاولى ، يركز هيكل على صفة « النجومية » ، وعلى « صناعة النجم » ، وكأنها هي التي تلخص شخصية السادات ، مع انها - من وجهة نظر كاتب هذه السطور - لا تزيد عن كونها أسلوبا ملائما لجمهور أجنبي اعتاد التهريج السينمائي حتى اصبحت صفة « النجومية » أساسية عنده ، حتى في اختياره لرئيس جمهوريته . وهكذا يتحدث « خريف الغضب » في مقدمته عن نجوم العصر ، فيضع ضمنهم « جاكلسين كندي » ، ويشعر القارئ العربي بأنه تلقى لكمة وهو يقرأ عن هذه الناذج المنحلة ، وإن كان القارئ الأمريكي لا يرى أية

غرابة في ذلك . والواقع أن السادات لم يكن في وقت من الأوقات نجما بالنسبة الى شعبة ، أعني المصريين والعرب على حد سواء ، بل كان نجما في نظر الأمريكان وبعض الأوروبيين ، وذلك لأسباب لا علاقة لها بشخصه ، وإنما بسياسته .

إننا نعلم جميعا ان أجهزة الاعلام الغربية ، والأمريكية بوجه خاص ، قد تعمدت أن تضخم صورة السادات ولم يكن ذلك راجعا فقط الى إعجاب هذه الأجهزة بذلك الصديق المخلص الجديد ، أو الى صفات معينة في شخصيته أهّلته لكن يكون في نظرنا « نجما » ، وإنما كان يرجع قبل كل شيء إلى رغبتهم في الحصول منه على المزيد من التنازلات ، عن طريق خدعة الإعجاب الاعلامي الزائد . فقد كان من الواضح ان لدى السادات ، شأنه شأن معظم الحكام الفرديين ، وربما بصورة أشد تطرفا من الباقين ، ميلا شديدا إلى الاحساس بأهميته وحضوره ، وكان ذلك يتجلى بوضوح حين تنشر الصحف المصرية ، على الدوام ، تعليقات الصحف والاذاعات الاخرى على خطابه لكى تبين مدى إعجاب الآخرين به . وقد أتقن الأمريكيون فن دراسة نقاط الضعف في شخصيات الزعماء ، وخاصة في العالم الثالث ، للاستفادة من نقاط الضعف هذه بقدر ما يستطيعون . وهكذا كان كل مقال يكتب عن السادات في صحيفة أمريكية ، وكل صورة له ، أو لأسرته ، على غلاف

مجلة أمريكية ، تعني مزيدا من التنازلات ، ومزيدا من الترحيب بالنفوذ الأمريكي ، ومزيدا من الامتيازات الاقتصادية أو العسكرية التي تمنح للغرب بوجه عام .

لم تكن المسألة إذن مسألة « نجومية » ، وإنما كانت « صناعة النجم » هذه ، في حقيقتها ، استغفالا واستغفالا لغرور حكام العالم الثالث . ومع ذلك فإن هيكمل أراد في كتابه أن يصحح فكرة الجمهور الأمريكي عن « معبوده » الحديد ، وأن يرسم له الصورة التي يعتقد انها حقيقية ، في مقابل الصورة المتطرفة في الإعجاب ، التي صورتها أجهزة الاعلام الأمريكية للسادات . ولكن ، ما الذي يدعونا الى تصحيح فكرة المجتمع أو الرأي العام الأمريكي عن السادات ، وما الذي سنجنه من ذلك ؟ إن أمريكا هي العدو الأول لأمانى الشعب العربي وتطلعاته ، فلماذا نجهد أنفسنا لكي نقدم إليها الصورة الصحيحة - إن كانت بالفعل صحيحة ؟ لماذا لم يوجه الكتاب ، مثلا ، إلى المعسكر الاشتراكي ، أو إلى العالم الثالث ، أو إلى الشعب العربي ، ولماذا يحرص المؤلف منذ الصفحات الاولى على أن يؤكد أن صورة السادات عند الغرب لم يكن لها ما يبررها ؟ ألا يزال عندنا نوع من « الأمل » في أمريكا حتى نتعشم منها خيرا عندما تصحح فكرتها عن زعمائنا ؟

إن دور النشر الأمريكية أقدر من غيرها على ترويح الكتب . هذا صحيح ، ولكن هناك فارقا بين كتاب ينشر في دار

أمريكية ، وكتاب يؤلف من وجهة نظر تستهدف مخاطبة الجمهور الأمريكي ، وأعتقد أن اهتمام هيكل بمحور « الممثل » « والنجم » ، وبالعوامل والعقد النفسية في النشأة الأولى ، واستخدام تشبيه « ترومان » لتبرير تعاونه مع السادات في السنوات الأولى من حكمه ، كل ذلك يدل على أن هيكل كان يخاطب في الأساس جمهورا أمريكيا ، ولم يكن يذّر في دار أمريكية فحسب .

على أن الهدف الذي كان يرمي إليه هيكل من هذا كله هدف عقيم . فمن العبث أن يحاول أي مؤلف تصحيح صورة حاكم شخصيته الجمهور الأمريكي لأسباب لا علاقة لها ، في الواقع ، بشخصه أو مسلكه . إن ما يهم أمريكيا ، شعبا وحكومة وصحافة وإعلاما ، هو المصالح ، وليس خفة دم هذا الحاكم أو طيبة قلب ذاك . ومن الممكن بالفعل أن يعجب الأمريكيون بحاكم من أجل هذه الصفات الشخصية ، ولكن « بعد » أن يكون هذا الحاكم قد خدم مصالحهم . أما إذا تعارضت سياسته مع المصالح الأمريكية ، فعندئذ لن يشفع له في نظرهم أن يكون في خلقه الشخصي قدسيا . وهكذا فإن الأمريكيين لا يكونون صورته عن أي زعيم على أساس فضائله الداخلية أو الشخصية ، أو حتى طريقته السليمة في الحكم ، بل على أساس ما يمكن أن يجنوه منه من فوائد . فالسادات كان معبود الأمريكيين ، لا لأن شخصيته كانت محبة لديهم ، بل لأنه حقق

لهم أكثر مما كانوا يلمون في الشرق الأوسط كله : فأخرج
السوفيت من أهم بلد عربي ، وفتح الأبواب للأسلحة والخبراء
الأمريكيين ، وأعطى الاستراتيجية الأمريكية قواعد أو ركائز أو
تسهيلات (سمّوها ما شئت ، فالحقيقة واحدة) ، وجعل محاربة
الشيوعية هدفا له الأولوية المطلقة على مكافحة الصهيونية ،
وتطرف في تحديد المقصود « بالشيوعية » حتى أدمج فيها كل
حركة وطنية تكافح الاستعمار والاستغلال . اما مسألة ما اذا كان
حاكما جيدا أو سيئا ، وما اذا كان قادرا على حمل مشاكل شعبه أم
مشاركا في تخريبه ، فهذه مسائل لا تهتم الأمريكيين كثيرا . وكم من
طاغية في أمريكا اللاتينية ، مثلا ، كانت فضائحه وجرائمه على
ألسنة الناس في العالم أجمع ، ومع ذلك كان الامريكيون
معجبين به أشد الإعجاب ، ويساعدونه بكل طاقاتهم في تثبيت
حكمه الإرهابي : كما حدث في حالة سوموزا ، وباتستا ، وما
يحدث حاليا في حالة بينوشيت . وأستطيع ان أقول ان هذا ليس
الموقف الرسمي للحكومة الامريكية وحدها ، بل أن الشعب
الامريكي ذاته قد تشكلت عقوله بحيث يوجه إعجابه بأي حاكم
أجنبي في اتجاه مصالحه ، لا في اتجاه مصالح البلد الذي يحكمه
هذا الحاكم . وهكذا فان محاولة هيكمل أن يفتح عيون الأمريكيين
على حقيقة السادات محاولة فاشلة ، بل إنها تفترض منذ البداية
صفاتا في الجمهور الامريكي لا يمكن ان توجد فيه . وهنا لا
يملك المرء الا ان يكرر السؤال الذي بدأنا به هذا المقال : لماذا

اختار هيكمل الجمهور الامريكى لكى يوجه اليه حديثه فى هذا الكتاب ؟

إن المرء يستطيع أن يقول ، باطمئنان ، ان علاقة هيكمل بأمريكا علاقة حميمة ، خاصة جدا . فمنذ البداية كانت أمريكا هي الموضوع الرئيسى الذى دار حوله الخلاف بينه وبين الأجنحة الناصرية الأخرى ، فضلا عن اليسار بطبيعة الحال . وكان إيمان هيكمل بقوة أمريكا وتأثيرها ودورها وعدم إمكان تجاهلها ، إيمانا راسخا لا يتزعزع ، أما الكتابات التى هاجم فيها أمريكا فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر فلا تمثل أى اتجاه دائم لديه ، وإنما كان هذا الهجوم ضرورة تكتيكية فى ظل الظروف السائدة بعد هزيمة ١٩٦٧ . وما أن استتب الأمر للسادات ، حتى عاد الاتجاه الأمريكى للظهور ، وكان التحول الذى طرأ على اتجاه السياسة المصرية نحو أمريكا فى عام ١٩٧٢ ، والذى دعا اليه هيكمل بحماسة بالغة ، هو نقطة البدء الحقيقية فى التغلغل الأمريكى فى المنطقة العربية كلها ، وليس اتفاقية فض الاشتباك ، كما يؤكد هيكمل باستمرار .

ومما يلفت النظر أن هيكمل ، فى كتابه عن السادات وفى احاديثه الصحفية عن فترة ١٩٧٣ و ١٩٧٤ ، التى تزايدت بصورة ملموسة فى الآونة الأخيرة ، لم يذكر شيئا عن حصار الجيش الثالث فى الضفة الشرقية للقنال من حيث هو أحد الأسباب الرئيسية للتوقيع على اتفاقية فصل القوات ، أو فض

الاشتباك ، التي بدأ فيها الخلاف يظهر بين السادات وهيكمل .
ذلك لأن الحصار الكامل الذي فرضته اسرائيل على هذا
الجيش ، كان هو الأساس الأهم للصفقة التي تمت بين السادات
وامريكا : إذ تعهدت هذه الأخيرة بأن تحفظ للسادات ماء
وجهه ، ولا تسمح لاسرائيل بتجويع الجيش الثالث او بدفعه الى
الاستسلام ، وفي مقابل ذلك اعترف السادات لامريكا
بالجميل ، لكي يظل قادرا على القول ان جيوشه كانت في الضفة
الشرقية حتى نهاية الحرب ، ووقع اتفاقية فض الاشتباك
الأولى ، وهذه جرّت الثانية ، كما جرت معها مزيدا من النفوذ
لأمريكا في المنطقة . فما سبب تجاهل هيكمل لهذا العامل
الحاسم ، على الرغم من أحاديثه المسهبة حول هذه الفترة ؟

لقد تم هذا الحصار وتحقق بمساعدة مباشرة من أمريكا ،
وكانت الدبابات تنزل من سفن الشحن أو الطائرات الأمريكية
الى ساحة المعركة مباشرة ، كما لعبت الأقمار الصناعية ووسائل
التجسس الأمريكية دورا أساسيا في تحديد مكان الثغرة التي أدت
آخر الأمر الى هذا الحصار ، وهو موضوع شرحه هيكمل بالتفصيل
في مقالاته التي كتبها عن هذه الفترة . فما الذي جعله يمتنع عن
الخوض في هذا الموضوع الحيوي في كتابه الأخير ؟ هل يرجع
ذلك الى انه لم يشأ ان يقول للجمهور الأمريكي ، الذي وجّه
اليه الكتاب ، ان الوضع السيء الذي وجد فيه الجيش الثالث
نفسه كان من صنع امريكا ؟ هل يرجع الى انه لم يشأ ان يتحدث

عن الصفقة التي يمكن أن تكون قد عقدت بين السادات وأمريكا ، بحيث يقايض السادات انقاذ امريكا له من الكارثة المحلية والفضيحة الدولية المترتبة على خنق الجيش الثالث وإحكام القبضة على عنقه بالتدريج ، مقابل ابداء الاستعداد التام لقبول المطالب الأمريكية ؟ اننا هنا ندخل منطقة البحار العميقة ، التي تمس صميم الصفقات والاتفاقات السرية ، والتي يصعب الكلام عنها الا عن طريق الاستنتاج . ولكن تسلسل الأحداث جاء كما يلي : اخذت السياسة المصرية تتجه منذ عام ١٩٧١ ، نحو الميل الى الطرف الأمريكي والابتعاد عن الطرف السوفيتي ، وتقدم هيكل بالنظرية التي تقول بإمكان إيقاف فاعلية امريكا في مساعدتها لاسرائيل في ظل ظروف وتوازنات دولية معينة ، وطبقت هذه السياسة عمليا ، وكانت أهم خطواتها طرد الخبراء السوفيت بطريقة مدوية ، ثم قامت حرب اكتوبر ، وكانت لدى امريكا معرفة كاملة بالطبيعة المحدودة لهذه الحرب ، في ضوء اتجاهات السياسة المصرية كلها ، وفي ضوء كتابات هيكل الصريحة والواضحة حول هذا الموضوع . ولكن السياسة الجديدة التي كان النبيّ المبشر بها هو هيكل ، أتت بنتائج عكسية تماما : فبدلا من « تحييد » أمريكا ، قامت أمريكا بأعظم وأسرع عملية انقاذ في التاريخ ، زودت فيها اسرائيل عبر جسر جوي جبار بما يكفيها للصمود في وجه الأداء المصري والسوري الممتاز في الأيام الأولى للحرب ، ثم الانتقال الى الهجوم الذي اسفر ، في سوريا ، عن تهديد دمشق

ذاتها ، وفي مصر عن ثغرة اخذت تتسع بالتدريج حتى حاصر الجيش الثالث كله حصارا كاملا . كان هذا الانقلاب في الميزان العسكري من صنع امريكا في المحل الاول ، وعندما امسكت بكل الخيوط في أيديها بدأت تحركها كما تشاء ، وبدلا من ان تتمكن السياسة المصرية من « تحييدها » ، أصبح الجيش الثالث وسمعة مصر وهيبة النظام ورجاله رهينة في أيديها ، وبدأ مسلسل توقيع الاتفاقات الاستسلامية .

هذا الجانب من الموضوع سكت عنه هيكل تماما وسط الضجيج الهائل الذي اثاره في كتابه الأخير ، وفي أحاديثه الصحفية الكثيرة هذه الأيام ، حول حرب أكتوبر . فهل كان سكوته شعورا بالخرج من أن تنكشف النتائج المأساوية لدعوته الى سياسة « التحييد » أم كان امتناعا عن الغوص في البحار العميقة ، التي تهدد من يقترب منها بالغرق ؟

أيا كان الجواب ، فإن هذه هي المرحلة التي اقام فيها السادات اتصالا وثيقا مباشرا مع الأمريكيين ، وفيها يروي هيكل قول السادات لكيسنجر ، عندما اجتمع به في بداية محادثات فض الاشتباك الأول ، « لماذا لم تأت من قبل ؟ » وفي رأيي الشخصي ان هذا الاتصال المباشر الذي اقامه السادات مع الأمريكيين منذ ذلك الحين ، والذي ازداد توثقا مع الأيام خلال السنوات التالية ، كان من الأسباب الرئيسية للجفوة ثم الخلاف بين هيكل والسادات : اذ كان السادات قبل هذه الفترة يعتمد

كثيرا على هيكل في كل ما يتعلق بالاتصال بالأمريكيين ، على أساس الصلات الوثيقة التي كانت تربط هيكل بهم ، وعلى أساس ما كان شائعا عنه من أنه يفهم الأمريكيين اكثر من غيره . ولكن منذ ان اقام السادات جسوره المباشرة بنفسه ، ومنذ ان فتحت قنوات اتصال واسعة بينه وبينهم ، لم يعد في حاجة الى صلات هيكل او خبرته الأمريكية ، وبدأ يتجه الى الاستغناء عنه . وفي الوقت ذاته فإن هيكل ، عندما شعر بأنه يُستبعد بالتدريج ، أخذ يوجه انتقاداته الى سياسة السادات ، لا سيما وأن هذا الاخير قد سكر بنشوة الغرام الأمريكي الى حد أنه أوقع نفسه في أخطاء لا حصر لها ، بينما كان هيكل يعرف جيدا ان امريكا لا ترتبط طويلا بالعشيق الولهان بحبها اكثر مما يجب ، والذي يفصح عن هذا الحب علنا ودون مواربة . انها سرعان ما تنبذ كل من يفصح غرامه بها ، لأنها تفضل دائما العلاقات الخفية ، المستورة ، الشديدة الفعالية ، ولا بأس - حتى - من مهاجمة أمريكا في العلن من آن لآخر ، حتى تظل الروابط الخفية قائمة .. هذا هو قانون الغرام الامريكي الذي لم يفهمه السادات فدفع حياته ثمنا لعدم الفهم .

* * *

وهنا نصل الى منطقة اخرى من مناطق البحار العمقية، مرّ عليها هيكل في كتابه سريعا ، وعالجها بطريقة غير متعمقة ، مع أنها كانت تستحق وقفة متأنية وتحليلا متعمقا - وأعني بها موضوع مقتل السادات ، واحتمال وجود دور لأمريكا فيه . فهيكّل قد

حرص على تبرئة الامريكيين من أية شبهة في هذا الحادث ، بعد مناقشة موجزة تنم عن رغبته في ان ينفض يديه بسرعة من هذه المسألة الشائكة ، في الوقت الذي حرص فيه على ان يتقصى خبايا مسائل اقل اهمية من هذه بكثير .

فحين طرح هيكل النظرية القائلة بوجود مؤامرة امريكية في قتل السادات ، استبعداها بسرعة لثلاثة اسباب تبدو في نظرنا غير مقنعة على الاطلاق :

السبب الاول أن نظام السادات كان أحد الدعائم الرئيسية في سياسة ريجان المعادية للشيوعية في المنطقة ، واستطاع التدخل في بعض بؤر المتاعب الأفريقية (متاعب من وجهة نظر امريكا بالطبع ، أما من وجهة نظر العالم الثالث فهذه « المتابع » هي حركات تحرير وطني) . والسبب الثاني أن الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل سقوط شاه آخر بعد اقل من ستين من سقوط الشاه الأصلي في ايران . . اما الثالث فهو أن من الصعب تصور وجود تلاق في الفكر أو العمل بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين التنظيمات الإسلامية .

هذه الاسباب لا تكفي على الاطلاق لتبرئة امريكا من تهمة التآمر على قتل السادات ، إذ أن محاربة السادات للشيوعية تتوقف على مقدار فاعليته كحاكم « بين شعبه والشعوب العربية الاخرى . أما فقدان السادات لفاعليته بين الشعوب العربية فكان قصة معروفة ، بدأت منذ فض الاشتباك الأول ، وانتهت

الى قطيعة تامة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وهو امر ينبغي ان تضعه امريكا في اعتبارها عندما تحسب مدى فائدته لها كصديق .
وأما فاعليته بين شعبه فقد شهد بضياها كثير من الامريكيين ، ومنهم سفراء في المنطقة نشروا تقارير مشهورة تضمنت نقدا مريرا لسياسة السادات . وكان الشاهد الاكبر على فقدان السادات فاعليته كصديق ينفع أمريكا في تحقيق سياستها في المنطقة ، هو حركة اعتقالات سبتمبر ، التي اغضبت الجميع ، ولم تترك للسادات صديقا في مصر ، بدءا بأقصى اليمين ، حتى أقصى اليسار ، مرورا بأحزاب المعارضة والسياسيين المخضرمين . فما قيمة هذا الصديق الذي يفقد فاعليته في بلده الى هذا الحد ؟ ان من الملفت للنظر ان حجم الانتقادات التي وجهت الى سلوب حكم السادات ، بعد اعتقالات سبتمبر ، التي سبقت اغتياله بشهر واحد ، كان هائلا الى درجة ادهشت السادات نفسه . فقد ثارت الصحافة الغربية ، في امريكا بوجه خاص ، ثورة عارمة على ممارسات السادات غير الديمقراطية وهو امر ليس من عادتها ان تقوم به بالنسبة الى اصدقائها في امريكا اللاتينية ، مثلا ، الذين يصفون الاثمة من معارضينهم جسديا دون ان تتحرك الصحافة الا فيما ندر . وهكذا كان واضحا ان نفس أولئك الذين « صنعوا النجم » قرروا ان وقت افوله قد حان .

أما عدم تحمل أمريكا لسقوط شاه اخر بعد اقل من سنتين ، فهو حجة لا تقنع احدا ، إذ أن امركا تستطيع ان تتحمل سقوط

الف شاه مادامت واثقة من أنها ستجد البديل . ولاننسى أن الشاه كان يؤكد دائما ان امريكا هي التي القت به بعيدا « كالفار الميت » ، بل إن احتمال اشتراك مخبراتها في التعجيل بموته قد أثر بقوة في كثير من الأوساط .

تبقى أخيرا مسألة استبعاد وجود تلاق في الفكر او العمل بين المخابرات المركزية الأمريكية والتنظيمات الاسلامية . وهذه في الواقع حجة شديدة السذاجة ، لا يملك المرء ازاءها الا ان يقول لهيكل : أنت تعرف خيرا من ذلك ! فالمخابرات الأمريكية لن تتلاقى مباشرة بالطبع ، في الفكر او العمل ، مع أي تنظيم كذلك الذي قتل السادات ، وإنما ستعمل من خلال « وسائط » قريبة من فكر هذا التنظيم وعمله ، وما أكثر هذه الوسائط في البلاد الاسلامية . ولا بد أن يكون أسلوب العمل هو الاتصال عن بُعد . بحيث لا يشعر المنفذون الأصليون بوجود أي تحريض خارجي على الاطلاق ، وتظل دوافعهم الدينية الأصلية هي التي تدفعهم طوال الوقت . وينبغي ان نلاحظ ان تغلغل اجهزة المخابرات العالمية في الجماعات الشديدة التطرف ، يمينا ويسارا ، هو اسهل الأمور ، وهو حادث بالفعل على نطاق عالمي . وعلى اية حال فإننا هنا ندخل منطقة من اخطر مناطق البحار العميقة ، التي ينبغي فيها على شهر زاد ان تسكت عن الكلام المباح ، وإلا فلن يدركها الصباح !

إن ابداء رأي قاطع في مثل هذه الأمور التي هي بطبيعتها

شديدة الخفاء ، والتي تدبر بإحكام وتكتسب بالغ ، هو امر مستحيل . ويكفي ان رئيس جمهورية امريكي مشهور ، هو جون كنيدي ، قد اغتيل في ظروف مريبة الى اقصى حد ، وشعر الكثيرون ان اجهزة امريكية خفية هي التي قتلته ، ولكن الموضوع ظل حتى يومنا هذا غامضا ، يثير علامات استفهام كبرى ، بعد ان قدمت هذه الأجهزة شخصا على انه القاتل ، ثم قتلت هذا القاتل ، ثم قتلت قاتل القاتل . . انها أمور لا تتكشف حتى لأدق لجان التحقيق ، ولكن « الضحايا » ، الذين يعرفون اساليب هذه الاجهزة خيرا منا جميعا لانهم تعاملوا معها طويلا ، غالبا ما يفهمون طبيعة ما حدث . فقد أدرك شاه ايران ، كما قلنا ، ان سلبية قادة جيشه ازاء المظاهرات العارمة في أيامه الأخيرة لا بد ان تكون راجعة الى اوامر من أسيادهم الأمريكان ، وكانت زوجة السادات وأسرته ، كما قال هيكمل نفسه ، من اقوى المؤيدين لنظرية المؤامرة الأمريكية ، ولم يعدلوا عنها لأسباب منطقية ، بل لأسباب مصلحة : « فقد وجد افراد الأسرة انها (اي النظرية) لا تستطيع ان تصل بهم الى شيء ، بل بالعكس قد تضر مصالحهم مع قوة يعتبرون انها قادرة على حمايتهم » .

انها كما قلت موضوعات شديدة التعقيد ، يكاد يستحيل كشف وقائع ملموسة تلقي الضوء على خباياها ، وكل ما يملكه المرء ازاءها هو ان يستنتج ، ويرجح الغرض الذي يفسر اكبر عدد

يمكن من الظواهر . واحسب ان افتراض وجود مؤامرة امريكية ، بالصورة التي عرضناه بها ، أقدر من غيره على تفسير اشياء كثيرة فضلا عن انه لا يتعارض مع الفرضين الآخرين ، أعني وجود مؤامرة داخل الجيش ، ووجود تنظيم اسلامي واسع النطاق هو الذي تولى تنفيذ العملية . فمن الممكن ان يكون لهذه الجهات الثلاث معا دور في تلك العملية التي خططت ونفذت بإحكام يفوق الوصف ، وهو احتمال لم يعرض له هيكل ، في حرصه الشديد على استبعاد الفرض الامريكي بسرعة .

ولكن ، إذا تركنا هذا الميدان الشديد الغموض ، المحفوف بالمخاطر ، وانتقلنا الى التحليل السياسي المرتكز على ارض اكثر صلابة ، لوجدنا ان امريكا ، إن لم تكن قد خططت لقتل السادات ، فإنها حكمت عليه بالاعدام سياسيا ، بعد ان استهلكته واستنفذت اغراضها منه .

فبعد ان وقع السادات معاهدة كامب ديفد ، بما فيها من بنود مفصلة بشأن انسحاب اسرائيل من سيناء والتطبيع معها ، وبما فيها من اشارات قايلة شديدة الغموض عن القضية الفلسطينية ، وبعد ان ثارت ثائرة العالم العربي على هذه المعاهدة وقطعت معظم بلاده علاقاتها بنظام السادات ، كانت امريكا تستطيع ان تسلك طريقا من طريقين :

الطريق الأول هو ان تدعم السادات وتضمن مستقبله السياسي عن طريق اثبات صحة موقفه امام العالم العربي .

ويقتضي هذا الطريق ان تتطور الاتفاقية بحيث تصبح اكثر من مجرد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، أي أن تسيره كما طالب

سيكون فيه انقاذ للسادات ، لأنه رهن مستقبله السياسي ، وعلاقاته مع العالم العربي بأسره ، على هذا التوقع . ولوسارت امريكا ، ومعها اسرائيل ، في هذا الطريق ، وحقت للسادات على الاقل جزءا مما يريد ، خارج نطاق التسوية المحلية بين مصر واسرائيل ، لاستطاعت ان تعيد اليه مكانته في العالم العربي ، ولأمكنها ان تربط كثيرا من البلاد العربية بعجلة الاتفاقية الجديدة .

ولكن هذا الطريق كان ينطوي ، من وجهة نظر امريكا ، على عيوب واضحة : اذ أنه يؤدي الى دفع ثمن باهظ ، هو الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ ، والى توحيد البلاد العربية في خط سياسي واحد ، يقوي جبهتها في المطالبة بالحقوق الفلسطينية ، وقد يؤدي في المدى الطويل الى انشاء كيان فلسطيني على مستوى معقول ، فضلا عما تؤدي اليه التسوية الشاملة ، بشروط معقولة ، من توفير ضخم للأموال والطاقات العربية في اتجاه التنمية التعمير .

أما الطريق الثاني ، الذي يرجح ان اسرائيل قد احت عليه ، واستجابت لها امريكا بعد ان اقتنعت بأنه اكثر تحقيقا لمصالحها المشتركة ، فهو عدم مجاملة السادات ، وعدم بذل اي

جهد من اجل انقاذه من ورطته ، مادام قد ادى مهمته الأساسية ، وعدم التنازل لبقية العرب عن شيء . هذا الطريق يتضمن من وجهة النظر الأمريكية - الاسرائيلية ، مزايا عديدة : بقاء العالم العربي ممزقا وفي حالة ضعف شديد ، والاستفراد بكل دولة بعد الاخرى وعزلها عن الباقين ، وإخراج مصر نهائيا من الصراع العربي الاسرائيلي وضمان حرية الحركة الكاملة لاسرائيل . وهكذا فإن مزايا هذا الطريق اعظم بكثير ، من وجهة نظر جبهة الأعداء ، من الطريق الآخر .

وكان الثمن الوحيد الذي ينبغي دفعه في حالة اتباع هذا الطريق الثاني ، هو التضحية بالسادات . . .

والآن ، تخيل نفسك ايها القارئ امريكيا مخلصا ، حريصا على مصلحة بلدك وعلى ارتباطات هذا البلد بالدولة الصهيونية التي تحقق له كل اهدافه في المنطقة ، فأى الطريقين تختار ؟ تهديدك لمصالح بلدك وحلفائك من اجل فرد واحد مخلص لك ، أم التضحية بالفرد وبمستقبله ، مهما كان اخلاصه ، من اجل ضمان مصالحك وزيادة مكاسبك ؟

لقد كان جواز المرور الوحيد لدى السادات امام العالم العربي ، والمبرر الوحيد لتوقيعه المعاهدة ، هو ان تستمر قوة الدفع الى ان تتحقق التسوية الشاملة . ولكن الطرف الآخر - وله كل الحق فيما فعل ، من وجهة نظره الخاص - وجدها فرصة

ذهبية لتوريثه ، وتركه عاريا في منتصف الطريق ، فضمن المكسب وتجنب الخسارة وهكذا ، فمنذ اللحظة التي ساندت فيها امريكا حليفها اسرائيل في تعنتها ومنذ اللحظة التي قررت فيها امريكا الا تضغط على اسرائيل الى الحد الذي يلزمها بالسير قدما نحو التسوية الشاملة منذ اللحظة كانت قد حكمت على السادات بالاعدام .

ولقد ادرك هذه الحقيقة بوضوح تام السفير الامريكي الاسبق في مصر ، لوشيوس باتل ، وعبر عنها بكلمات بالغة الدلالة في المقال الذي كتبه في رثاء السادات : « كلما كانت الولايات المتحدة تضغط عليه للدخول في كامب ديفد ، كان تعرضه للخطر يزداد ، فلم نقبل نحن ولا الاسرائيليون نتائج الأخطار التي كنا ندفعه اليها . ولقد كانت الطريقة الوحيدة التي كان يمكن بواسطتها ان يصبح لاتفاقيات كامب ديفد معنى في نظر السادات هي افتراض امكان التقدم نحو صلح شامل ، وكان من الضروري ان تظهر علامات واضحة على ان طريقه هو الصحيح ، حتى يجذو العرب الآخرون في الوقت المناسب حذو السادات ، وهو امر كان يقتضي فهما من جانب اسرائيل وضغطا من الولايات المتحدة على الفريقين لتحريك مباحثات الحكم الذاتي وخفض عدد المستوطنات في الضفة الغربية . ولكن بدلا من ذلك ، زادت المستوطنات ، وأضيفت اهانة ضرب المفاعل في العراق وقصف بيروت . ولم تفعل الولايات المتحدة شيئا . .

وهكذا أصبح السادات شهيدا لنفسه وللعالم الغربي ، ولكن ليس للشرق الأوسط ، سواء منه العربي او الاسرائيلي .

« لقد كانت المجموعة الامريكية التي شيعت جنازته ضخمة الى حد لم يعرف له مثيل من قبل . وهكذا فإننا بعد أن خذلناه حيا ، قد احتضنناه ميتا »^(١) .

في هذه الشهادة المباشرة ، يظهر بوضوح ان السادات كان ، بالنسبة الى امريكا ، قد استنفذ اغراضه ، وادى ما هو مطلوب منه ثم ترك لمصيره المحتوم . ولم يعد مجديا بعد ذلك ان يحاول استرضاءهم بتصریحات حامية ضد الشيوعية ، إذ أنهم كانوا قد اداروا له ظهورهم ، وعندما زارهم قبل مصرعه بشهرين ، كان واضحا أنه لم يعد في نظرهم الزعيم المفضل الذي كان . ومنذ كامب ديفد بل منذ زيارة القدس . ادرك اصداق امريكا ، الأكثر منه ذكاء والأبعد منه نظرا ، ان السفينة غارقة لا محالة ، وهكذا قفز منها اسماعيل فهمي ، ثم منصور حسن ، ثم هيكل ، الذي كان على أية حال واعيا بأبعاد الأزمة قبل الجميع . ولو لم يكن القتل الفعلي قد تم بتدبير من امريكا ، لأمكن القول - على اقل تقدير - ان امريكا هي التي قيدت يدي السادات بالسلاسل ، وأمسكت برأسه وشدتها الى الوراء ، ولم يبق الا السكين التي تذبح .

١ - انظر مقال Anwar Sadat Remembered المشار اليه من قبل ، ص ٤٧ .

من ص ١٤١ الى ١٤٩

ومن هنا فاني ارى ان مرور هيكل السريع على مسألة دور امريكا في مقتل السادات واستبعاده اي فرض يحملها مسئولية ما حدث لصديقها العتيد ، هو امر لا يمكن تفسيره الا باحد امرين : اما ان هيكل يشعر بالخطورة الشديدة لخوض هذا الموضوع ، الذي لا بد ان يمتلئ بالوثائق والمعلومات عنه ، وإما أنه يريد ان يبعد عن ذهن القارئ أي احتمال لتورط امريكا ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في هذه العملية .

* * *

ان المنحى العام لكتابات هيكل ، في مراحلها المختلفة ، يقنع كل من يتابعها بدقة بأنه كان يرتبط بها في علاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التي يوجهها اليها فإنها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، لأن أصدقاء أمريكا ، اذا كانوا أذكاء ، لا بد ان يهاجموها من آن لآخر ، بل انها هي ذاتها التي تطالبهم بذلك .

وانا أعرف أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لدى هيكل ، ولذلك فاني سأتابع في اثباتي لما اقول ، اكثر الطريق امانا ، واعني به الاستعاضة بما يقول هيكل نفسه .

في احدى حلقات كتاب « مدافع آية الله » الذي نشرته « الوطن » ، يتحدث هيكل عن وساطة طلبتها منه امريكا من اجل حل مشكلة الرهائن الذين كانوا محتجزين في السفارة

الامريكية بطهران ، مرة قبل محاولة امريكا الفاشلة لانقاذ الرهائن بالقوة الاولى في صحراء تاباز ، ومرة اخرى بعد قيام هذه المحاولة وفشلها الذريع . في المرة الاولى سأل هارولد سوندرز ، وكيل وزارة الخارجية الامريكية ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر فأجاب هيكل بأنه على استعداد لمساعدة الايرانيين ، ومن الواضح ان السؤال أهم ألف مرة من الجواب . فما الذي يدفع موظفا رسميا امريكا الى ان يسأل صحفيا مرموقا في دولة يوجد بينها وبين امريكا تضارب شديد في المصالح ، عما إذا كان على استعداد لمساعدة رئيس دولته ؟ وعلى أي اساس بني توقعه بإمكان قيام هيكل بهذه الخدمة للرئيس الامريكي ؟

ولكن الأهم من ذلك هو الوساطة التي طلب الى هيكل القيام بها ، عن طريق رسالة بعثها اليه الأمريكيون : (والنص الآتي مصوّر من « الوطن » مباشرة) . (٢)

واتضح انها عبارة عن اقتراح ، القصد منه ان اقوم انا باستخدامه في محاولة جديدة لمفاتيحه السلطات في طهران ، وكانوا يأملون ان اوافق على هذه الخطوة . وكانت الوثيقة غريبة بالفعل ولعل افضل طريقة لاثهار مدى ابتعاد التفكير الاميركي عن الواقع هو ان اورد الوثيقة كما هي :

« الفكرة هي ان يذهب هيكل الى ايران ، ويقدم الى بني

صدر طريقة تمكن الايرانيين من استخدام كارثة عملية الانقاذ ،
لاطلاق سراح الرهائن وان يضعوا نهاية لهذه القضية . كما يقوم
هيكل باقناعه ان مثل العمل ، فرصة نادرة ليركب موجة قومية
اسلامية لتدعيم مركزه - ويمكن تقديم نفس الفكرة الى الخميني
باعتباره مشاركا في نفس الرغبة للتخلص من المشكلة » .

« ويمكن لهيكل ان يستفيد من النقاط التالية :

أ - أن نجاح الثورة الايرانية امر قد اتضح وتمت البرهنة عليه
من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الانقاذ الامريكية ، فلقد
بين الله سبحانه وتعالى للعالم ، انه مهما كان العدو
جبارا ، فان الحق في جانب المظلومين وفي هذه الحالة
ستتاح للجميع الفرصة ليشهدوا التسامي الخلقي
للجمهورية الاسلامية ولهذا :

ب - خدمت قضية الرهائن الغرض الذي كانت ترغب فيه
ايران .

فقد كانت بمثابة الاداة التي اظهرت للعالم ، وبشكل مثير ،
مساوىء حكم الشاه ودعم الحكومة الاميركية له . ان
عجز الحكومة الاميركية عن القيام بعملية انقاذ هو الشهادة
الثانية والاخيرة على عدالة اخذ الرهائن . (وعلى
سبيل المثال: ادى الفعل الايراني الى رد فعل امريكي نتج
عن فشله تأكيد للرسالة التي كانت ايران تود ان تنقلها

اساسيا) لذا لم يعد هناك اي حاجة للرهائن .
ج - سيتم الافراج عن الرهائن ، لأن ايران لم تكن تنوي ابدا
الحاق الاذى بهم ، وهذه اللفتة ستظهر بشكل مثير
وواضح مدى سماحة الاسلام ورحمته وليس هناك شعور
بالكراهية تجاه الشعب الامريكي ، وانما ينصب الكره على
الحكومة وحدها (فيطلق سراح الرهائن الان ، وليظهر
غباء الامريكيين وعدم مهارتهم اكثر من ذي قبل ولتنقلهم
الطائرات من تاباز نفسها امام مندوبي الصحف ولتدون
كل ملاحظاتهم الساخرة المستخفة بالولايات المتحدة
الخ . .) ولتظهر ايران ، والجمهورية الاسلامية بمظهر
المنتصر ذي الاخلاق السامية .

د - وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والابطال
القوميين فهم لم يلحقوا الاذى باحد ، كما انهم
نفذوا تعاليم الامام . وستقوم الحكومة بمكافأتهم
بسخاء ، ويعترف الامام بفضلهم بشكل خاص ، قد
تكون هذه هي اخر فرصة لقوة المختطفين لترك مجمع
السفارة دون حدوث ضرر لاحد في ايران .

هـ - يجب ان تعلن ايران نفسها قرار الافراج وكأنه حدث درامي
يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهي خطوة اتخذها
الخميني بنفسه . واجراءات الافراج عن الرهائن ستمنح
ايران فرصة هائلة للدعاية ، تغطي بها الخمسة اشهر

البائسة بمسحة من الاخلاق الحميدة الرحمة وهكذا تجدد
ايران صورة الاسلام ، وهذا شيء يسعد كافة المسلمين في
العالم . وتهاجم الحكومة الامريكية مرة اخرى لعدائها
للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة ايران مع
الحكومة الامريكية ولا يمثل اي نوع من المهادنة معها .
انتهت الرسالة .

* * *

ولقد تلقيت رسائل اخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن
حسب معلوماتي كانت ترد من طهران ، كانت كل خطوط
الاتصال مع الامريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس .
فلم يكن لدى الايرانيين اي فكرة عن المفترض فيه ان يتحدث
معهم ، ولا حتى عن تلك الاشارات التي كانوا يتلقونها من
الامريكيين وتعبر عن الموقف الاميركي الحقيقي .

آمل أن تكون ، أيها القارئ ، قد قرأت هذه الصفحة
المصورة بإمعان . فلم يكن ما تطلبه امريكا هنا من هيكل مجرد
وساطة ، بل انهم اختاروه شخصيا للقيام بعملية خداع
واستغلال لعقول الايرانيين ، مستغلا مشاعرهم الاسلامية ،
بحيث يتعامل معهم كما لو كانوا مجموعة من الهنود الحمر
البدايين الذين يمكن الحصول على كل شيء منهم مقابل عقد من
الخز الملون . وبالطبع فقد تصور هيكل انه يدافع عن نفسه
حين قال انه لم يقم بتنفيذ المهمة المطلوبة منه ، ولكن هذا ؛ في

الواقع ، ليس دفاعاً على الإطلاق ، اذ ان المشكلة لا تكمن في التنفيذ او عدم التنفيذ ، وانما في الطلب ذاته .

المشكلة الكبرى هي ان الأمريكيين « كانوا يأملون ان يوافق على هذه الخطوة » . فعلى أي اساس جاءهم هذا الامل ؟ كيف تصوروا أنه سيقبل الاشتراك في عملية خداع الحكام الايرانيين ومعاملتهم كأنهم أطفال ؟ من أين جاء كل هذا الامل ، وكل هذا « العشم » ، في هيكل ؟ وكيف توقعوا منه ان يتجاوز مهمة الوساطة ويقوم بتمثيلية خداعة على الايرانيين باسم الاسلام ، اي ان يخاطبهم وفي نيته ان يغشهم ويستغل سذاجتهم لصالح امريكا ؟ وما هي نوع الروابط التي تربطه بهم حتى يطلبوا منه شيئاً كهذا ؟

ان هيكل يستطيع ان يقول ، بالطبع ، انه ما دام قد نشر الرسالة فلا بد أنه كان حسن النية . ولكن الواقع انه لا يدرك ما يمكن ان تكشفه رسالة كهذه عن الطريقة التي ينظر بها الأمريكيون اليه فمن المستحيل ان تطلب امريكا من انسان عادي - مهما كانت مكانته - ان يعرض نفسه للأخطار من أجل أداء كل هذه الخدمات لصالحها . وحتى لو كانت امريكا قد اساءت التقدير ، وتصورت خطأ ان هيكل يمكن ان يقوم بهذا كله لحسابها . فإن لهذا الخطأ ذاته دلالة البالغة ، لأنهم لا يمكن ان يكشفوا اوراقهم على هذا النحو لاي شخص غير ملتصق بهم . ومن جهة اخرى فقد كان المفروض ، في حالة خطأ

امريكا ، ان يرد عليهم هيكل بشدة ، لا معذرا فقط ، بل مستنكرا هذا الطلب بكل قوة . كان المفروض ان يرد عليهم ردا شديدا العنف ، يقول فيه ، مثلا : هل تتصورون انكم تخاطبون شخصا يشتغل لحسابكم حتى تطلبوا مني شيئا كهذا ؟ وكيف تتخيلون انني سأقوم بعملية خداع واستخفاف بعقول أناس وضعوا ثقتهم فيّ ؟ ولكن هيكل لم يفعل ذلك ، والدليل على هذا هو أن كل ما انتقده على الأمريكيين ، في تعليقه على رسالتهم ، هو « ابتعاد تفكيرهم عن الواقع » . والدليل الأهم على انه لم يستنكر ، ولم يوقف الأمريكيين عند حدهم ، هو انهم عادوا فبعثوا اليه برسائل اخرى .

ان هيكل لم يدرك النتائج الخطيرة للكلمات التي قالها ، وكل ما طاف بذهنه هو انه كان في هذه القصة رجلا مهما يسعى اليه وزير الخارجية الأمريكي ويختاره شخصا للتوسط بين دولتين ، احدهما اكبر واغوى دولة في العالم . وفي نشوة الاحساس بالسعادة الناتجة عن الشعور باهميته ، لم ينتبه الى المعاني الواضحة التي يستطيع اي عقل على قدر ضئيل من الذكاء ان يستخلصها من روايته .

وفي ضوء هذه الاعترافات الخطيرة ، غير المقصودة ، التي ادلى بها هيكل ، الا يشعر المرء بالاشفاق حقا على الايرانيين الذين فتحوا له ابوابهم ، وأطلعوه على أخطر وثائق السفارة الأمريكية ، بغد أن خدعتهم شهرته المرتبطة بجمال عبد

الناصر ، ثم خرج هو من الزيارة بكتاب تضمّن كثيرا من
السخرية من الايرانيين ، وربما خرج بما هو اكثر من ذلك ؟

انني ، إدراكا مني لحساسية هذا الموضوع عند هيكل ،
حرصت على الا أستخدم نوع الالفاظ الذي يغضبه . ولكن
الأهم من ذلك أنني لم آت بشيء من عندي ، وكل ما فعلته هو
أنني تركت هيكل يدين هيكل .

الفصل العاشر

من الذي هدم الهيكل

الفصل العاشر

من الذي هدم الهيكل

ما نوع ردود الفعل التي يمكن توقعها ازاء بحث كهذا الذي كنت اقوم به طوال المقالات السابقة ؟ سأترك جانبا ردود الفعل الايجابية الممكنة ، وأركز حديثي على ردود الفعل السلبية .

ان هناك فئة غير قليلة من القراء تفكر على النحو الاتي : ما دام هيكل قد أساء الى السادات ، وما دام هذا الناقد (كاتب هذه السطور) قد استهدف كشف اخطاء هيكل ، اذن فنقده مفيد في الانتقام من هيكل لصالح سياسة السادات .

وهناك فئة اخرى ، ربما كانت اكثر عددا ، تنظر الى المسألة بالطريقة العكسية : بما ان هيكل قد فضح عهد السادات ، وهو عهد غير وطني ، اذن فلا بد من الوقوف الى جانبه ، اما من يهاجم هيكل في الظروف الراهنة فانه يضعف الجبهة المعادية للسادات ، بعد ان كانت قد انتعشت بظهور كتاب هيكل . وواضح ان الاساس الذي يقوم عليه هذا النوع من التفكير هو مبدأ : عدو عدوي صديقي (عدوهم السادات وهيكل

عدوه) . وتبعاً لهذا المبدأ يكون كاتب هذه السطور ، في انتقاده لهيكل ، هو في الواقع « عدو عدو عدوهم » ، أي عدو صديقهم ، أي عدوهم !

ومع اعتذاري للقاريء عن هذه الالغاز اللفظية الاخيرة ، فاني اجد في هاتين الطريقتين في الفهم لب الخطأ الذي احاول منذ البداية ان اقنع القاريء بالآلا يقع فيه . فموقفي ، كما قلت مرارا ، منصب على نقد جو فكري عام ، واسلوب كامل في النظر الى عملية الحكم ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وطريقة اتخاذ القرارات الحاسمة . وهذا الاسلوب اوسع نطاقا من اي فرد تحدثت عنه في هذا الموضوع او ذاك ، بحيث لا يمثل هيكل وكتابه الاخير الا حالة صارخة ، حادة ، قريية العهد ، من حالات ظاهرة اقدم واوسع انتشارا واقوى رسوخا بكثير .

واذا كان الساداتيون ، الذي ينتمي اليهم اصحاب الرأي الاول ، قد قرأوا ما كتبت بامعان ، فسوف يدركون ان نقدي للعهد الساداتي ربما كان اشد حدة من نقد هيكل ، لانني ارجعت كثير من الظواهر الى جذورها الحقيقية ، ومن ثم فان اية محاولة يبذلونها للافادة مما كتبت هي ، كما قلت في مقالي الاول ، مرفوضة من اساسها .

اما اصحاب الرأي الثاني ، الذي يضم عناصر من الفئات الناصرية واليسارية والقومية ، فانهم يرتكبون خطأ جسيما حين

يستعينون ، من اجل دعم موقفهم ، بشخصيات مثل هيكل .
ان الكثيرين منهم ، بالطبع ، يصفون موقفى بأنه نوع من
المثالية التي تفتقر الى الحس العملي : انه بحث عن الصواب
المطلق او الخطأ المطلق ، لا يعرف كيف ينتهز الفرص . السانحة
ويستفيد من اي عنصر - بصرف النظر عن طبيعة هذا العنصر في
ذاته - من اجل خدمة قضيته . هذا رد اتوقعه من الكثيرين ، بل
اتوقع ما هو اشد منه : فمن هؤلاء من سيهاجمني بعنف ، مؤكدا
ان هيكل الان يخوض معركة ضد المؤسسة الساداتية كلها ، ولا بد
من تأييده ومساندته ، لا اضعافه ومحاربته .

ولكن هذا المنطلق ، في رأيي ، مرفوض من اساسه .
فالمسألة ليست على الاطلاق مثالية مفرطة في الابتعاد عن الواقع ،
وانما هي - على عكس ذلك - موقف واقعي وشملي بكل معاني
الكلمة . ذلك لاننا لن نستطيع ان نفهم العوامل المؤدية الى
السقوط الذي وصلنا اليه ، في كافة جوانب حياتنا ، الا اذا حللنا
بدقة اساليب التفكير والممارسة عند اولئك الذين تحكموا في
مصائرنا طوال عشرات السنين ، وانتقدنا هذه الاساليب دون اية
مهادة . وحالة هيكل تقدم لنا نموذجا بارزا لهذه الاساليب ،
وان كان يظل رغم كل شيء مجرد نموذج ، لا يهمننا الا بقدر ما
يدل على المناخ السياسي والفكري العام الذي كان ينتمي اليه .

والواقع انني لا اجد ، من منظوري الخاص ، اية فائدة
ترجى من التحالف مع شخصيات اعتادت القلب مع عهود

الحكم ، بحيث لاندري ، اذا كانت تتخذ اليوم خطا وطنيا (سنقدم له تفسيراً فيما بعد) ، اي خط ستخذه غدا . فاذا اضيفت الى ذلك حقيقة اهم من هذه ، وهي ان هيكل اسهم بدور اساسي في ارساء دعائم الاتجاهات التي ينتقدها اليوم على السادات ، عندئذ يبدو التحالف معه امرا مخفوا بالخطر ، ويبدو انقلابه الاخير على السادات موقفا لا علاقة له بالمبادئ السياسية ، وانما هو في حقيقته ، ومهما انكر هيكل ، انتقام شخصي يلبس رداء الوطنية .

وفي غمرة الغضب الذي اجتاح هيكل ، خلال فترة اعتقاله القصيرة الامل ، نسي أشياء كثيرة ، ولم يتذكر الا انه يريد ان ينتقم ، وكان لديه بالطبع مخزون المعلومات الهائل الذي يضمن له انتقاما مدويا . وهكذا تحدث هيكل عن اخطاء السادات ، مدعما بالوثائق التي تفضح اشياء كثيرة وخطيرة ، كما لو كان مشاهدا محايدا ، ونسى الدور الخاص الذي لعبه في هذه الاخطاء . بل انه حين تدفق في سرد المعلومات من مخزونه الكبير ، نسي ان الكثير مما قاله له دلالات عكسية ، ويأتي بنتائج سلبية على الجميع ، سواء عليه هو ، او على الحكام الذين عاش في عهدهم . ومرت عليه اشياء خطيرة انزلت اليها دون ان يدرك معانيها ، حتى ليشعر المرء - كما سنرى فيما بعد - ان غضبه قد سد عليه منافذ التفكير .

ولو كان هيكل متسقا مع نفسه ، لتمالك غضبه وبدأ كتابه

بانتقاد نفسه . كان من واجبه تجاه ذاته ، وتجاه وطنه ، ان يقول ، : « لقد ايقظتني فترة السجن من غفوة طويلة . . . كنت على خطأ في كثير من مواقفي طوال الاعوام الثلاثين الماضية ، فكان اكبر اخطائي مساندتي القوية للسادات ودعمي لحكمه ، وهانذا اكفر عن اخطائي . . » لو كان هيكل قد بدأ بكلمات كهذه ، وصاغ كتابه في هذا الاطار ، لما تعرض لكلمة نقد واحدة مني او من غيري ، بل لصفقنا له جميعا ، اذ انه كان سيقدم الينا عندئذ عملا رائعا ، يكشف الحقائق المخفية ، ويلقي بموضوعة - اضواء باهرة على اخطر مرحلة في التاريخ العربي المعاصر .

ولكن هذه امنية يستحيل ان تتحقق : اذ كيف تنزل الالهة من عليائها وتعترف بأخطائها ؟ ان هيكل يرى نفسه ارفع حتى على الرد على منتقديه ، فكيف نتوقع منه نقدا ذاتيا شاملا ؟ على رسله اذن ، وليتحمل نتيجة موقفه .

لقد كانت لدى هيكل حاسة سياسية مرهفة جعلته يتخذ حتى النهاية موقف المحامي عن عبد الناصر ، وبدرجة اقل ، عن عصر عبد الناصر ، رغم انه شارك بدور رئيسي في بذل الجهد الضخم الذي ادى الى القضاء على اهم مقومات العهد الناصري في ١٥ مايو ، وكان من دعائم التحول الحاسم الذي كان لابد ان يفضي في النهاية الى انهيار سياسة الحياد الايجابي ، والى الانحياز لامريكا ، بكل ما يعنيه ذلك من انضمام الى صف

اعداء الشعوب ومكافحي التحرر الوطني ، ومن تصالح وتطبيع مع اسرائيل ، ومن سيطرة للطبقات الطفيلية والبنوك الاجنبية .
واذا كان هيكمل قد انتقد هذه النتائج كلها بشدة في الآونة الاخيرة ، فان دعمه الحاسم للسادات ، الذي كان هيكمل يعرف جيدا ميوله واتجاهاته واتصالاته ، كان لابد ان يؤدي الى نتائج كهذه في المدى البعيد .

ولقد اتاحت هذه الحاسة السياسية المرفهة ذاتها لهيكمل ان يقفز من مركب السادات في الوقت المناسب ، ويدخل من اجل ذلك السجن فترة قصيرة . وكان دخوله السجن في الواقع اكبر « ضربة حظ » نالها في السنوات الاخيرة . فعندما اصدر « خريف الغضب » ، استطاع ان يكتسب لنفسه تأييد كل الساخطين على عصر الانفتاح ولصوص التمويل والارتقاء في احضان بيجن وتوصيل ماء النيل الى القدس وبيع آثار مصر ومواقعها التاريخية . . . تحول هذا كله الى رصيد لصالح هيكمل ، واعترف هو نفسه بذلك حين قال في الفضل الاول من كتابه ، معلقا على مهاجمة السادات له : « حين يجعل رئيس الدولة من احد مواطنيه هدفا دائما لهجماته ، فهو بذلك يرفع من قدره ولا ينتقص منه . وبالتالي فلعلي لا اتجاوز اذا قلت انني على نحو ما مدين للرئيس السادات بما اضافه - دون ان يقصد - الى قيمتي في الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء » .
وبصرف النظر عما يمكن ملاحظته بسهولة من ان تضخيم الذات

واضح في هذا الكلام ، فان الحقيقة الواقعة هي ان هيكل قد اصبح في نظر الكثيرين « بطلا » وطنيا ، واخذ الوطنيون الشرفاء يتبنون قضيته ، اما عن كراهية للسادات تحتم التصفيق بلا تفكير لكل من يهاجمه ، واما عن عجز عن الربط بين حلقات التاريخ . وفي المقابل ، فان خصومه من الساداتيين اخذوا يهاجمونه بعنف ، مما جلب له مزيدا من الشعبية . وحين اتخذت الحكومة بعض الاجراءات القمعية ، بإصدار تشريع استثنائي آخر يمنع اي « مسؤل » من الإفشاء باسرار كان مطلعا عليها ، تحول هيكل ، الذي طالما برر الحكم الفردي وصاغ له النظريات البارعة ، الى شهيد لحرية الرأي والديمقراطية المهدرة .

ان قصة هيكل مع الحرية والديمقراطية قصة طويلة ، ليس هنا مجال الكتابة عنها ، وكل ما نود ان نفعله هو ان نركز انتباه القاريء على جوانب معينة من الانتقادات التي وجهها ، مؤخرا ، الى السادات ، والتي وقف فيها يدافع بقوة عن هذه المبادئ السامية ، ثم نسأل انفسنا : هل كان هيكل ، في انتقاداته الاخيرة ، يدين السادات وحده ، ام يدين نفسه ايضا ، ويدين كل المناخ السياسي الذي كان يعمل فيه ؟

يتحدث هيكل في الفصل الخامس من كتابه عن الهدايا التي كان السادات يتلقاها فيقول : « وخلال سنوات عمله في المؤتمر الاسلامي كان السادات يتلقى الكثير من الهدايا في عالم يؤمن بالهدايا كوسيلة من وسائل توثيق الصلات . » فاذا تساءلنا : اي

عالم كان يقصد ؟ اتانا الجواب سريعا : « لكن الحق يقال انه كان كريما في تقديم الهدايا قدر كرم الآخرين في تقديمها له . لقد قدم انور السادات في تلك الفترة اكثر من سيارة « كاديلاك » كهدايا لعبد الحكيم عامر » اذن فالمقصود عالم اقطاب ثورة ٢٣ يوليو ، اولئك الثوار الذين استهدفوا تطهير مصر من « فساد » الاحزاب القديمة ، والذين يهدي احدهم الى الآخر بعضا مما انعم الله به عليه ، هو مجرد « سيارات » كاديلاك تقدم الى الرجل الثاني بين الثوريين ، الذي وضعه هيكل في الموضع نفسه بانه « كان في نفس الوقت اقرب اعضاء مجلس قيادة الثورة الى قلب جمال عبد الناصر » .

حسنا ، ان مثل هذه الاشياء تحدث في احسن « الثورات » ، ولكن الم تكن هذه الواقعة تستحق من هيكل تعليقا على النظام الذي سمح بهذا ، وجعل من الهدايا وسيلة لتوثيق الصلات ؟ هل هذه هي الدروس التي يقدمها فلاسفة الثورة للاجيال الجديدة ؟

ينتقد هيكل العهد الساداتي على كثير من ممارساته اللاديمقراطية ، وهو قطعاً على حق في هذا القدر ، ولكنه لا يقدم اشارة واحدة الى الاطار التاريخي الذي ظهرت في ظله هذه الممارسات ، ويصورها كما لو كانت قد ابتدعت في عهد السادات .

فهو يعيب على السادات اصداره تشريعا يمنع الذين « افسدوا الحياة السياسية قبل الثورة او بعدها » من النشاط السياسي ، وينسى ان تشريعات كهذه كانت تصدر من آن لآخر طوال عهد الثورة ، كان اولها ما صدر في عام ١٩٥٣ تمهيدا لحل الاحزاب . وهكذا فان تشريع السادات حلقة في سلسلة طويلة من الاجراءات القمعية ضد التجربة الحزبية في مصر ، ولم يكن السادات في اجرائه هذا الا ابنا مخلصا للتراث الذي تربي سياسيا في ظله . ومادام هيكل قد وجد في التشريع الساداتي اجراء تعسفيا - وهو بالفعل كذلك - فلماذا سكنت عن الاجراءات المماثلة السابقة ، بل لماذا ايدها ودعمها بتنظيراته ؟ هنا نرى هيكل واحدا ضمن سلسلة طويلة من رجال الثورة الذين كانوا يؤيدون الدكتاتورية وهم في الحكم ، ثم يتحولون بقدرة قادر الى ديمقراطيين متحمسين عندما يتم استبعادهم ، من امثال البغدادي وكمال الدين حسين وهويدي ، الخ . . .

وهو يسخر من تلاعب السادات في الدستور ، وتعديل المادة الخاصة برئاسة الجمهورية ، بحيث تتجدد مدة الرئاسة الى ما لانهاية . . . هل كانت هذه هي المرة الاولى التي حدث فيها ذلك ؟

بل انه يلاحظ في الفصول الاخيرة ، عن حق ، ان السادات كان لديه دستور لا بأس به ، ولكنه لم يكن يتقيد به . . . الم تكن هذه فرصة لنقد مبدأ التلاعب بالدستور بوجه عام ،

اولاعطاء القاريء درسا في اهمية الدساتير ووجوب احترامها في كل العهود ؟

وحين يسخر هيكل من استفتاءات السادات ، التي كانت نتائجها مضمونة مقدما ، والتي كان يلجأ اليها لاضفاء صبغة قانونية زائفة على اجراءات او تشريعات مخالفة بطبيعتها لروح القانون والدستور - فهل كان هيكل يهاجم مبدأ الاستفتاء ذاته ، ام كان يهاجمه فقط عندما طبقه خصمه السياسي ؟ الم يكن الاستفتاء مبدأ معمولاً به قبل عهد السادات بوقت غير قصير ؟

ومما يلفت النظر ان هيكل قد انتقد بشدة ، في كتابه الاخير ، طبيعة التنظيمات السياسية غير الشعبية التي تخلقها السلطة لدعم مركزها ، ويشير الى عيوبها بقوله : « لم تكن لدى حزب مصر - على سبيل المثال - ولا الحزب الوطني بعده ، من القوة السياسية الا ما اسبغه النظام بالسلطة عليهم ليكونوا واجهات يتستر وراءها الفعل الحقيقي . وكان اكثر من نصف اعضاء مجلس الشعب من هؤلاء الذين غيروا آراءهم مع تغيير الحكومة لسياساتها . كانوا اشتراكيين في الوقت الذي كان من الحكمة فيه ان يكونوا اعضاء في الاتحاد الاشتراكي العربي . واصبحوا رأسماليين عندما انفتحت الابواب لرأس المال الاجنبي . وكانوا اصدقاء للاتحاد السوفيتي حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا بسرعة - حين تغيرت الظروف - الى الصداقة مع الولايات المتحدة . وكانوا دعاة الحرب مع اسرائيل ، وبعد المبادرة

اصبحوا كلهم من دعاة السلام . »

هذا تشخيص سليم بغير شك ، ولكن هل ينطبق على
اعضاء حزب مصر والحزب الوطني وحدهم ؟ الم ينتقل عدد
كبير من الاعضاء قبل ذلك ، من هيئة التحرير الى الاتحاد القومي
الى الاتحاد الاشتراكي ، رغم اختلاف المبادئ والاسس في كل
حالة ؟ الم يكونوا بدورهم رأسماليين في البداية ، ثم اعلنوا
ولاءهم للاشتراكية حين اصبحت سياسة رسمية ؟ ان جوهر نقد
هيكل كان ينبغي ان ينصب على اسلوب الحكم الذي يفرض
تنظيما شعبيا مقلوبا ، يسير نشاطه من القمة الى القاعدة ، على
حين ان التنظيمات ، لكي تكون شعبية بحق ، لابد لها ان تبدا
بالقاعدة وتنقل رغباتها ومطالبها الى القمة . ومثل هذا الاسلوب
لم يبدأ فجأة في عهد السادات ، بل كانت له مقدمات طويلة .

اما الحديث عن اولئك الذين كانوا اصدقاء للاتحاد السوفيتي
حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا عندما تغيرت الظروف الى
الصداقة مع الامريكان ، فانه حديث جريء حقا ، وخاصة
حين يصدر عن هيكل . وأرجح انه كتب هذا الجزء وهو جالس
امام المراة !

وحين وصف هيكل عملية اعتقاله وصفا دراميا مفصلا ،
كان يتحدث في الواقع عن نقطة تحول هامة في حياته ، جعلته
يتخذ قراره بان يتكلم . والامر المذهل حقا هو ان هذا الاعتقال

المخفف جدا ، سواء من حيث مدته او اسلوب معاملته في السجن ، لم يكن مما يمكن مقارنته على الاطلاق بما حدث لالوف الاشخاص من قبل ، ممن ذاقوا اشد الاهوال لمدد اطول كثيرا ، وفي ظروف اصعب الف مرة . ومع ذلك فان هيكل يصور حادثة اعتقاله كما لو كانت شيئا فريدا في نوعه ، ولم يحاول ان يعالجها ، ولو في سطر واحد ، بوصفها ظاهرة عامة ونتيجة ضرورية لاسلوب معين في الحكم .

وواقع الامر ان هيكل لم ينطق بحرف حين كانت الاعتقالات تحدث جزافا ، وتنتهي في حالات معينة بعاهاات مستديمة للمعتقلين ، وربما بموتهم . لم يحركه امتهان كرامة الانسان او لجوء فئة معروفة من السجنانيين الى ممارسات غير آدمية ، عندما كان الانهيار قد حدث ، وكان النظام في حاجة الى ما يهديء مشاعر الشعب المجروح بالهزيمة عن طريق ممارسة محدودة للنقد الذاتي ، اما في ذروة ايام القمع فلم يحرك ساكنا .

ويقدم الينا هيكل اوصافا وتفاصيل طريفة عن احساس السادات بالعظمة وبأن الآخرين الى جواره « اقزام » ، وعن عزلته المتزايدة وتناقص عدد مستشاريه يوما بعد يوم . ولكنه يصف هذه الظاهرة كما لو كانت عيبا شخصيا في السادات . ولو تعمق في الامر قليلا لادرك ان اسلوب الحكم الفردي لابد ان يؤدي الى هذا النوع من جنون العظمة . فحين يمسك فرد واحد ، لمدة سنوات عديدة ، بسلطات هائلة في يديه ، وحين

يسمع كلمات الموافقة والطاعة من كل المحيطين به ، وحين تملأ
صوره واخباره وكلماته اجهزة الاعلام صباح مساء ، وحين
تتحول اية رغبة له الى واقع فعلي بمجرد ان ينطق بها ، وتتقرر
المصائر والسياسات بكلمات من قلمه . . . حين يحدث ذلك كله
لفرد واحد ، لابد ان ينتهي تكوينه النفسي الى عدم التوازن .
وكم الذت كتب عن هذه الظاهرة في حالة عدد كبير من الحكام
الفرديين . ومع ذلك فان هيكل يقدمها اليها كما لو كانت تعبيرا
عن اختلال في شخص السادات كفرد ، ويتجاهل الجانب العام
للظاهرة ، الذي يجعلها نتيجة ضرورية لانفراد انسان واحد بعدد
هائل من السلطات .

ان القضية ليست قضية السادات وحده ، ولا عبد الناصر
وحده ، بل قضية اسلوب الحكم الذي لا يستند الى تمثيل شعبي
حقيقي - ذلك الاسلوب الذي ادركه هيكل في حالة السادات ،
ولم يدركه قبل ذلك . والامر المؤسف هو انه كان واعيا به ، اذ
كان هو قد نصح السادات ، بعد انتصاره في حركة التصحيح ، بان
يحدث الناس في خطاب الى مجلس الامة عن قضية الديمقراطية ،
لأنها هي « القضية التي تهتم الناس مباشرة في هذه الظروف . ان
الناس يريدون ان يسمعوه وهو يؤكد لهم ضمانات حرياتهم .
لقد افلتوا بالكاد من شبح دكتاتورية كان يمكن ان تصل في
تجاوزاتها الى حد معين . »^(١) اذن فقد كان هيكل يعلم ان الناس

(١) انظر الفصل الخامس من « خريف الغضب »

تواقه الى الديمقراطية ، وان الجناح الذي هزم ، والذي هو
الملتصق بعبد الناصر والمنفذ لسياسته ، كان دكتاتوريا ، فهل
حاول في ذلك الحين ان يدافع عن المبدأ الذي تحول الآن الى
داعية له ، ام ان الديمقراطية لا تجد من ينادي بها الا حين يكون
الحكم في موقع الضعف ، بينما تسحق بالاقدام بمجرد احساسه
بالقوة ؟

ان هيكل على العكس ن ذلك ، طلع علينا - خلال فترات
الشعور بالقوة - بنظرية « الديمقراطية بالموافقة » ، ويعني بها ان
يكون الحاكم على وعي بمطالب الجماهير وامانيها ، فيحققها
لها ، وعندئذ لا بد ان يكون تصرفه ديمقراطيا ، لان الجماهير
ستوافق حتما عليه ، ولانه تعبير صادق عما تريده الجماهير .
ويدافع هيكل ، في حديث قريب ، عن هذه الفكرة ، مؤكدا انه
لم يقل بها الا بعد ان اتخذت القرارات الكبرى المعبرة عن موافقة
الشعب ، كتأميم قناة السويس والتطبيق الاشتراكي وبناء السد
العالي ، الخ . . . ولم يدرك هيكل انه حتى هذه القرارات
الكبرى ينبغي ان تسند ، قبل اتخاذها لا بعده ، الى ارادة
شعبية ، اما لو اقتصر الامر على اتخاذها من اعلى ، فستظل
معرضة للخطر . وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد
الناصري : فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة ، ولكنها لم
تنشق عن الشعب وانما اتت من اعلى ، وظلت معتمدة بقاء
الزعيم الذي اوجدها ، فلما اختفى ، انهارت بعده وكأنها بيت
من ورق .

وهكذا كانت نظرية « الديمقراطية بالموافقة » بدعة هيكلية ينكرها اي حس ديمقراطي سليم . بل اننا لا نعدو الصواب اذا قلنا انها سلاح ذو حدين : إذ أن السادات كان يؤكد ، من جانبه ، ان « ٩٩,٩ ٪ من شعبي يؤيدني في زيارة القدس ، وفي الصلح والتطبيع مع اسرائيل ، ولا يعارضني في ذلك الا مجموعة من الارذال ! . . » اتسرون الى اين يمكن ان تؤدي بالشعب افكار خطيرة كالديمقراطية بالموافقة ؟

ان الحكم الفردي ، حتى لو بلغت انجازاته عنان السماء ، يظل معرضا للوقوع على الدوام في كوارث . وما كانت كارثة ١٩٦٧ - التي لم يعرض لها هيكل في كتابه الا بطريقة سريعة وفي مساحة تقل بكثير عما خصصه للحديث عن مسكن السادات او زوجات ابيه - ما كانت في حجمها وفي فداحتها الا نتاجا للحكم الفردي . والواقع ان مشكلة هذا الاسلوب في الحكم هي ان خطأ الفرد فيه يمتد الى امته بأسرها ، على حين ان تأثير الخطأ في الحكم الديمقراطي يكون أضيق نطاقا بكثير ، فضلا عن ان احتمالاته اقل ، وامكانية اصلاحه اكبر . ومن هذا النوع كان خطأ عبد الناصر في التقدير عام ١٩٦٧ ، وخطأ السادات في اسلوب التفاوض بعد حرب ١٩٧٣ ، وزيارته للقدس عام ١٩٧٧ . انها كلها قرارات فردية لحاكم فرد ، معرض كسائر البشر للخطأ ، ولكن خطأه يتحول ، بسبب طبيعة حكمه ، الى كارثة .

وتلك كلها مسائل لم يحاول هيكل ان يتطرق لها ، بل عرض في الفصل الاخير من كتابه لاختطاء السادات كشخص ، ولم يتناول اسلوب الحكم الذي كان السادات احد مظاهره ومن هنا شاع التفاؤل في صفحات الكتاب الاخيرة ، ما دامت الشخصية « الشريرة » قد اختفت ، وحلت محلها شخصية ذات مزاج مختلف .

والآن فلقد كنت طوال حديثي السابق اتحدث بلسان المفكر السياسي او الاجتماعي ، ومع ذلك فاني لا استطيع ان اقاوم اغراء العودة ، في نهاية الحديث الطويل ، الى ممارسة مهنتي الاصلية : الفلسفة ! فحين تأملت مواقف هيكل واساليب تفكيره ، توصلت الى مجموعة من النقاط استطيع ان اطلق عليها اسم « مبادئ الفلسفة الهيكلية » فما هي هذه المبادئ ؟

المبدأ الاول : في البدء كان النسيان :

ان المتأمل لتقلبات هيكل وتغير مواقفه يستطيع ان يدرك بوضوح ان النسيان اساس ضروري يعتمد عليه هذا النوع من المفكرين من اجل اقناع الناس بأرائهم . ولقد ضربنا امثلة واضحة ، بل صارخة ، لتحولات جذرية طرأت على مواقف هيكل من القضايا المصرية للامة العربية في ثلاث سنوات متعاقبة : ١٩٧٠ - ١٩٧١ - ١٩٧٢ ، بحيث بدأ هذه السنوات بموقف راديكالي متشدد ، وانتهى - بعد تدرج مرسوم بعناية - الى

موقف شديد الاعتدال ، وانعكس اتجاه تأييده المعلن ، من الاتحاد السوفيتي الى الولايات المتحدة ، واختلف تصوره للحرب المنتظرة ، الخ . . . مثل هذه التحولات الجذرية لا يمكن ان يجرؤ احد على تقديمها الى الناس في سنوات متعاقبة كهذه الا اذا كان واثقا من ان الناس سرعان ما ينسون ، وانك اذا كررت موقفك الجديد والحث عليه بما فيه الكفاية ، فلن يعود في ذهنهم سواه ، ولن يحاسبك احد على ما قلت من قبل .

انها عقلية تحتقر ذكاء الجماهير وتفترض انها تعيش ، وتفكر ، يوما بيوم ، وتتصور ان كل ما يحتاج اليه السياسي هو ان يكرر الاكذوبة لكي تصبح حقيقة . ولو تصور احد ان الكاتب نفسه هو الذي ينسى مواقفه السابقة ، وليس الجمهور ، لكان في ذلك غلطاً اشد الخطأ . فمثل هؤلاء الكتاب ، ومعهم الحكام الذين يعملون هم لحسابهم ، يتذكرون كل شيء ، ولكنهم يؤمنون بأنهم هم وحدهم الاذكياء ، ويسلمون تسليماً كاملاً بغباء الآخرين . وفي هذا المبدأ نستطيع ان نفسر جرأة هيكل على اتخاذ عدد كبير من المواقف التي كانت متعارضة فيما بينها تعارضاً شديداً . اذ بدأ برفض التجربة الحزبية ، وأيد عبد الناصر بكل قوة ولم يقل شيئاً عن ممارساته القمعية ، ثم شارك في تحطيم اقرب اعوان عبد الناصر ، ومهد الطريق بكل ما يملك من قوة لعهد هدم كل الاسس التي قامت عليها سياسة عبد الناصر ، وساند حياد عبد الناصر الايجابي ، وتوجهه التالي نحو

السوفيت ، ثم توجه السادات نحو امريكا ، ثم عاد اخيرا يتباكى على ايام التوازن الاستراتيجي بين السوفيت والامريكان ، ومشى مهللا ومصفقا في جنازة الديمقراطية في النصف الاول من الخمسينات ، وشارك في تحديد وتبرير الاتجاهات الرئيسية للحكم الفردي ، ثم بكى لوعة على الديمقراطية الضائعة في آخر عهد السادات ، ورفع السادات في اول عهده الى عنان السماء ، ثم اتضح لنا اخيرا انه كان يعرف عن طفولة السادات وشبابه وكهولته معلومات مشينه مخجله ..

اكان في استطاعة اي انسان ان يتقلب بين هذه المواقف لو لم يكن يركز على مبدأ اساس ، هو ان الانسان حيوان ناسٍ ، وان فقدان الذاكرة صفة مشتركة بين جميع البشر ، وان عقول الناس تعمل يوما بيوم ، ولا تربط الماضي بالحاضر ، او الامس باليوم ، وانه هو وحده الذكي ، « الفهلوي » ، الذي يستطيع ان يغير مواقفه دون ان يتنبه لذلك احد ؟

المبدأ الثاني : ديمقراطية « انا وحدي » :

في حديث قريب العهد لهيكل^(٢) ، يتحدث ببطولة عن موقف حازم وقفه ضد وزير طالبه بان يعرض مقالاته على الرقابة قبل ثلاثة ايام من نشرها ، فرفض هيكل بشدة ، وارسل اليه

(٢) حديث مع صلاح عيسى - الاهالي ، ١٩٨٣/٦/١ .

يقول : « انني لا استطيع ان اكتب وفي ضميري ان ورائي من سوف يجري بقلمه على ما اكتب » . . . ثم يقول : « انني لم اكتب بانتظام ، وتحت عنوان : بصراحة ، الا بناء على اتفاق مع الرئيس عبد الناصر الا يخضع شيء مما اكتبه للرقابة » .

موقف رائع ، بطولي ، اليس كذلك ؟ ومع ذلك فان دلالات هذا الموقف محزنة ومؤسفة ، والمؤلم حقا ان هيكل يتحدث عن هذا الموقف في معرض التفاخر ، ودون ان يلمح من ورائه شيئا آخر . ان هيكل هنا يجعل نفسه فئة قائمة بذاتها ، فئة مستثناه . فجميع الكتاب الآخرين يخضعون للرقابة ، اما هو فقد اتفق مع عبد الناصر على ان يكتب بلا رقيب . واعجب ما في الامر انه على وعي بالاختناق الذي يصيب الكاتب من جراء الرقابة ، ويدرك بوضوح كيف ان قلم الرقيب يشل ضمير الكاتب ، ومع ذلك فانه لم يحاول ان يعالج القضية بالنسبة الى الجميع ، او يكتب الى المسؤولين منتقدا « مبدأ » الرقابة ، وانما كتب يقول : لا بد ان انال حريتي . . . انا وحدي ! وتكتمل المأساة حين يصور هذا الموقف كما لو كان بطولة عظيمة ، وتنشره الصحيفة المعارضة دون ان تعلق عليه او تستخلص دلالاته . . .

ولقد اثبت هيكل في مواقف اخرى كثيرة ان يقف بحزم ضد التصرفات الاستبدادية عندما تمسه شخصا ، او تمس المقربين منه ، ويتمسك « بالاعفاء الشخصي » من تجاوزات الحكام ،

ولكنه لا يحاول الدفاع عن « المبدأ » نفسه ، او ان « يجب لآخيه ما يحبه لنفسه » ، كما تقول النصيحة المشهورة . فحقوق الآخرين لا اهمية لها مادام حقه الخاص مكفولا ، واذا حلت مشكلته الشخصية ، مع اجهزة قمع الحريات ، فان كل شيء يصبح على ما يرام . . . هذا ، في نظر هيكل ، هو الوضع الطبيعي ، اما ما يتجاوز ذلك فلا يهيمه في شيء .

هكذا تصرف هيكل من واقعة اخرى ورد ذكرها في مقال سابق ، هي واقعة اعتقال اجهزة عبد الناصر لزميل له في « الاهرام » ، فقد ثار ثورة فردية ، لان الموضوع مس كرامته وسلامة المقربين منه ، اما المبدأ العام ، مبدأ عدم جواز اعتقال البشر بلا سبب ، وبلا محاكمة ، فلم يتطرق اليه من قريب او بعيد .

ومثل هذا ينطبق على موقفه من اعتقاله في آخر ايام السادات : فقد تحدث عن « محتته » الشخصية ولم يذكره السجن بألوف الضحايا الذين سجنوا قبله في « جرائم » الرأي او العقيدة ، فلم يقل كلمة واحدة عن مساويء الاعتقال بوجه عام ، ولم يسهم برأي واحد من أجل ضمان الحريات الشخصية للجميع على حد سواء .

وعلى العكس من ذلك ، فان هيكل اكتسب جزءا كبيرا من مجده بفضل هذه الديمقراطية التي كان يتمتع بها وحده ، في

الوقت الذي يَخْتَنق فيه الآخرون . وكم من آراء كان يعرضها ، طوال الوقت الذي كان فيه هو وحده المتحرر من الرقابة ، كان من الممكن نقدها وتفنيدها وهدمها بسهولة تامة ، لو اتيحت فرصة مماثلة للكتاب المعارضين وكم من « نظرية » جاءت بها قريحته ، أو « تبرير » من نتاج عبقريته ، كان من الممكن اثبات تفاهته بيسر لو كان الناس قادرين على المناقشة الحرة . غير انه ظل وحده في الميدان ، مستمتعا بانتصاره على خصم مغلول الايدي ، وظل يغزو عقول الناس صباح كل جمعة ، دون منافس او معترض . والحق ان اي مفكر حقيقي يستحيل ان يقبل لنفسه هذا الاحتكار الفكري ، او ان يخطو خطوة واحدة في حلبة هذا الصراع غير المتكافئ : فهو لا يرضي لنفسه بان يعلو صوته بينما الاصوات الاخرى مكتومة ، او بان يتفلسف شاهرا سيفه على افواه مكمنه والسنة مربوطة . ومجرد قبول هيكمل بهذا الوضع ، واصراره على ان يحقق لنفسه ، هو وحده ، مثل هذه الحقوق الديمقراطية ، يدل على انه في صميمه بعيد كل البعد عن الديمقراطية .

ايريد القاريء مثلا آخر ، قبل ان تنتقل الى النقطة التالية ؟ ان هيكمل يشير ، في الفصل الخامس ، وفي معرض التفاخر كما هي العادة ، الى ان عبد الناصر كان يبدأ دائما بسؤاله عن رايه في الموضوع الذي يناقش ، لانه كان يتكلم بغير حرج ، « وكان يشك في ان بعض الاخرين عادة يحومون حول الموضوع حتى

يتعرفوا على رأيه (راي عبد الناصر) فيه ، ثم يسبقوه الى ما يتصورون انه يريد . » .

هذه هي النتيجة المساوية للدكتاتورية : الخوف ، النفاق ، تملق الزعيم والاستجابة لرغباته بدلا من تحقيق مصلحة المجتمع ، الامتناع عن المعارضة - وفي مقابلها ذلك ، شجاعة المتكلم الاوحد ، الذي يستطيع هو وحده ان يتكلم « بغير حرج » . هل هذا اسلوب في الحكم يمكن ان يقيم ثورة او يبنى مستقبلا او يكون رجالا ؟

ومع ذلك فان الموضوع يمر على هيكل ، كما هي العادة ، دون ان يتنبه الى ان ما يعتقد انه سبب للفخر ، هو في الحقيقة امر مؤسف ومخجل . فهل من تعليل لعدم التنبه الدائم هذا ؟ انه بالقطع ليس نقصا في القدرة على الفهم والتحليل ، وانما هو ، ببساطة ، اعتياد على العيش في جو الحكم الفردي والاستمتاع بمزاياه الشخصية ، يؤدي في النهاية الى ان تصبح اكثر جوانب السلوك بشاعة امورا عادية ، مألوفا ، ليس فيها أي خطأ . . .

المبدأ الثالث : الوطنية بأثر رجعي :

اسهل انواع الكفاح واقلها تكلفة هو ان تكافح بعد فوات الاوان ، بينما تظل متفرجا ، او تتواطأ ، عندما تكون الاحداث ساخنة ، يمكن التأثير عليها وتغييرها الى الافضل . فبهذا اللون

من الكفاح بعد فوات الاوان ، تبدو امام الناس وطنيا ، مع العلم انك لم تفعل شيئا .

وفي حالة هيكل لم يقتصر الامر على الكفاح باثر رجعي ضد سياسات كان اثناء حدوثها متفرجا ، بل انه كافح بعد فوات الاوان ضد سياسات كان هو نفسه قد اسهم بنصيب كبير في صنعها . ومثل هذا الكفاح ليس سهلا قليل التكلفة فحسب ، بل هو ايضا كفاح خادع ، اذا شئت ان استخدم اخف الالفاظ .

وسنضرب لهذا الاسلوب في الكفاح ، وفي اظهار الوطنية ، بضعة امثلة قد لا تحتاج الى شرح مفصل ، لانها سبق ان عرضت بتوسع من قبل . فكل ما يقوله هيكل الآن عن الافتقار الى الديمقراطية وانتهاك الدستور والقوانين الاستثنائية ، الخ . . . هو كفاح باثر رجعي ، لانه لم يكن يدعو اليه في الوقت المناسب ، بل نادى به - فقط - بعد ان كان كل شيء قد انتهى . وكما رأينا من قبل ، فقد كان لهيكل دور هام في تهيئة الاذهان لطرد الخبراء السوفيت والتشكيك في قيمة اسلحتهم ، وكذلك في الدعوة الى تحييد امريكا . وبعد ان تحقق ما كان يدعو اليه ، ثم استخلص النظام الحاكم نتائج الطوعية منه ، عاد هيكل فنعى على السادات تعاونه مع الامريكان وتجاهله للسوفيت . . . ومتى حدث ذلك ؟ بعد ان اصبح اصلاح الامر مستحيلا ، وفرض الامر الواقع الجديد نفسه على الجميع . اما في الوقت الذي كان من الممكن فيه تدراك الامر ، فان كتابته كانت تسير في

الإتجاه العكسي .

وبالمثل ، فان حملته الراهنة على ادارة حرب اكتوبر سياسيا ، وعدم تطويرها عسكريا ، وافشاء سر الحرب المحدودة الى الامريكان ، كل هذه وطنية بأثر رجعي ، لان الاحداث انتهت منذ زمن بعيد ، اما في الوقت الذي كان يمكن فيه التأثير في مجرى تلك الاحداث ، فقد كان هيكل يدعو بكل صراحة الى الحرب المحدودة ، والى التفاهم مع الامريكان .

واخيرا ، فان نقده للاتجاهات التسلطية ايام عبد الناصر لم يصبح مسموعا الا ايام السادات ، بعد ان اصبحت مراكز القوى في حالة دفاع عن النفس . اما عندما كان هؤلاء الجبابرة يسومون الناس عذابا ، ويعتقلون الآلاف بلا محاكمة ، فلم نسمع له صوتا . وهكذا تأتي البطولة دائما متأخرة ، ويظل هيكل مشاركا في الخطأ اثناء حدوثه ، ثم يستنكره بعد فوات اوانه من اجل كسب النقاط ورفع الاسهم وزيادة رصيد الوطنية على غير اساس .

كلمة اخيرة :

اكاد ، في لحظتي هذه ، اسمع احتجاج القاريء ، وخاصة لو كان شابا ، وهو يقول : لقد هدمت كل مقدساتنا ، ولم تترك الا حطاما ، وشككت الناس في كل شيء وكل شخص ، ولم تقدم بديلا ايجابيا .

وردي على هؤلاء هو انني لم استهدف، كما قلت مرارا ، اي شخص بعينه ، وسيكون قد اساء فهم مقصدي كل من يتصور انني اريد ان اهدم اسطورة هيكل او كشف عيوب هذا الحاكم او ذاك . فهذه نتائج يمكن ان تأتي بطريقة عرضية او هامشية . اما الهدف الاصلي الذي كنت اسعى اليه فهو ان احث قرائي على ان يفكروا فيما يرونه حولهم بوعي وتبصر . ولا بأس خلال ذلك ان تتزعزع مقدسات كثيرة ، فأول مراحل العقيدة الصحيحة هي تحطيم الاصنام . ولا بأس من جريمة كبيرة من النقد والتشكك في عصر اصبحنا فيه ممنوعين من اي اعتراض او احتجاج .

ان هدي الحقيقي ليس هيكل ولا السادات ولا عبد الناصر ، بل هو عقولكم انتم . فمن هذه العقول تأتي الهزيمة او النصر .

ولقد كتبت هذه الصفحات كلها في ايام قليلة ، بعد نشر كتاب هيكل مباشرة وكنت طوال كتابتها اعجب لحماستي التي تتدفق وكأنني اريد أن أسوي حسابا طويلا قديما ، بل ان بعض القراء تصوروا بالفعل ان بيني وبين هيكل ثارا خاصا ، وذلك جريا على عادتنا في تفسير كل شيء بعوامل شخصيته .

وحقيقة الامر هي ان هناك بالفعل حسابا اردت ان اسويه ، ولكن ليس مع هيكل او اي شخص آخر بعينه ، بل مع اسلوب في الحكم وفي التفكير وفي معاملة الانسان للانسان كنت ارفضه على الدوام .

كان يكفي ان اسير في شوارع القاهرة كل صيف ، وارى
الفارق بين قاهرتي الجميلة التي شهدتها في طفولتي وصباي ،
وقاهرة اليوم التي خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون ان يفعل
بها . .

كان يكفي ان اقارن بين تعليمي في طفولتي والقشور التي
يتلقاها اطفال اليوم باقل الاساليب امانة واخلاصا . . .

كان يكفي ان اتأمل تعاسة ابناء وطني حين يبحثون عن
العلاج ، او عن مسكن ، او عن وسيلة اتصال . . .

كان يكفي ان اتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية ، منذ ان
صعدت لتناطح اقدم امبراطوريات الارض ، حتى هبطت الى
حضيض « إزالة آثار العدوان » بعد ان اصابتنا هزيمة نكراء على
يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليط لا يزيد مجموعة عن سكان
بلدة متوسطة في وطني . . .

كان يكفي ان ارى طائرات العدو تمرح فوق سماء بغداد ،
وجيوشه تصول وتجول في شوارع بيروت . .

كان يكفي ان أتأمل هذا كله لكي اتساءل : ما الذي
حدث ؟ ولكي اجد نفسي مدفوعا بقوة عارمة الى تسوية
الحساب ، لا مع هيكل بالذات ، بل مع كل القيم واساليب
التفكير والحياة التي كان يجسدها ويبررها . . .

الناشر
شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
ص. ب. (٢٤٢٦٧) ت ٢٥٥٣٤٨٩ - ٢٥٥٥٩٦٨
الكويت
٤٠٠٠ / ٨ / ١٩٨٣ / ٨

دار الجليل

يطلب من

دمشق - ص ب ٤٦٤٨١

هاتف ٤٥٤٣٣٩

الثمن ٢٠ ل.س

To: www.al-mostafa.com